حضارة الطين

عنوان الكتاب : حضارة الطين

المؤلف: شاكر مصطفى

اختيار: مالك صقور

تقديم: إسماعيل الملحم

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/108/ حزيران

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

شاكر مصطفى

حضارة الطين

اختيار: مالك صقور

تقديم: إسماعيل الملحم

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (108)

شاكر مصطفى في (حضارة الطين)

يختصر تاريخاً يعيد صياغته في إنجازات لاحقة

إسماعيل الملحم

منذ خمسينيات القرن الماضي كان لشاكر مصطفى حضوره في المشهد الثقافي السوري الذي لم ينقطع حتى أواخر القرن. ظل قلمه منهمكاً في الكتابة فأنتج العديد من الكتب في الموضوعات التاريخية والأدبية وظل يطل على قرائه من خلال الدراسات والمقالات ينشرها هنا وهناك في بعض الصحف والمجلات على مساحة الوطن العربي. كان ذهنه في كل ما كتب مشغولاً بالهم العربي، ويشغله التفكير الذي لا يفتر في الكيفية التي يستطيع ناس هذا العصر أن يحافظوا بوساطتها على الهوية الحضارية للإنسان.

اشتغل في كتابة التاريخ فكان المؤرخ المشهود له في براعة التفكير وفي جمال التعبير. حاز عن جدارة على لقب المؤرخ الذي ينشد الدقة والموضوعية، يقرؤه الباحث فتشده الطريقة التي عالج فيها موضوعاته وتروق له تعليلاته وتحليلاته، فلا يمل من متابعة قراءة إنجازاته، وتأخذ القارئ الهاوي والمتأدب عباراته الأخاذة، بارع في صياغة اللغة، حاز منذ البدايات على إعجاب الكتاب والمتأدبين. وصفه المتابعون بأنه الأديب والمؤرخ ونعتوه بلقب أديب المؤرخين، والمؤرخ الأديب والأديب المؤرخ فلم يظلموه ولم يجاملوه.

افتتح نزار قباني كتاب "بيني وبينك" الذي نشره شاكر مصطفى عام 1955 بعنوان: أغنية لشاكر مصطفى، جاء فيها قوله:

أنا أحب شاكر مصطفى، وهذه الأغنية التي كتبتها له ليست مقدمة ... وإنما دعوة إلى حبه.

كلمات شاكر مصطفى أغان، نثر فني غير مسبوق. ولنزار قوله:

وشوشة صغيرة أريد أن أبوح بها قبل أن أذهب... وهي أن شاكر مصطفى ـ من زاويتي أنا ـ أول كاهن بشَّر بنثر

فني من طراز لم يعرفه تراب بلادي منذ سنين. فأنا الأدب عندي تعبير غير عادي عن مشاعر عادية فإذا شاركتني هذه النظرة فإنك سترى في أدب شاكر طيباً غير عادي ... طيباً غير الذي تشمه في واجهات المكاتب، وحوانيت الوراقين.

ومرة تلو أخرى غنى نزار لصديقه، حيث كتب:

هذا هو موعدي الأول مع شاكر، موعد على ضفة محبرة تسبح في مدِّها الأسود حياته وحياتي. موعد على حضن حرف فما أحلاك يا شاكر ورائحة الحبر تهب في قميصك هباتٍ تتمنى معها الليلكة لو أصبحت دواة.

ويتابع نزار أغانيه، يقول:

ولقد كنت ولا أزال أعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال أبجدية بعد ... ولم يزحف في جبين إنسان، حرف يتعذب من أجل وجوده على الورق، فإذا أحببت شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف ... ورائحة الظنون وهي تحترق...

شاكر مصطفى (1920 ـ1997)

ولد في إحدى حارات دمشق القديمة وتعلم في مدارسها، حصل على الشهادة الثانوية عام 1939 لينتقل إلى

القاهرة ويدرس التاريخ في جامعة فؤاد الأول ويتخرج منها عام 1945حاصلاً على الإجازة الجامعية. ويعود إلى دمشق ليكون أحد مدرسي مادة التاريخ في عدد من مدارسها الثانوية وفي دار المعلمين الابتدائية.

وفي الفترة الواقعة بين عامي 1945 و1955 شغل عدداً من الوظائف في وزارة المعارف، منها: مدرس لمادة التاريخ كما ذكرنا، ومدير للمعارف في محافظة درعا، ومدير لدار المعلمين الابتدائية في دمشق، ثم أمين للجامعة السورية.

وبعد ذلك عمل مستشاراً ثقافياً في السفارة السورية بالقاهرة عام 1956فقائماً بالأعمال في السودان عام 1957، وفي عام 1958 عين وزيراً مفوضاً في كولومبيا، وشغل وظيفة قنصل عام في سفارة سورية في البرازيل من 1961 إلى 1963، ثم سمي مديراً عاماً في وزارة الخارجية وأميناً عاماً بالوكالة. وفي عام 1965 تولى منصب وزير الإعلام لفترة قصيرة.

في عام 1966 سافر إلى الكويت ليعمل في تدريس مادة التاريخ في جامعتها الوليدة لمدة خمس وعشرين سنة. نال خلالها شهادة الدكتوراه من جامعة جنيف في سويسرا وحملت أطروحته عنوان: (مؤرخو العصر السلجوقي والأيوبي).

إلى جانب عمله في جامعة الكويت قدم عدداً من البرامج الإذاعية. وكان يكتب الدراسات والمقالات وينشرها في دوريات عربية مختلفة.

قرأنا في طور اليفاعة ونحن طلبة في المرحلة الثانوية كتيباً له، عنوانه:

(العرب في التاريخ). كان هذا بداية علاقة مع حروف شاكر مصطفى يشبع فينا نحن طلبته تعلقنا بالتاريخ العربي. وكان قد نقل من وظيفة مدير دار المعلمين الابتدائية في الفصل الدراسي الأول إلى وظيفة أمين الجامعة السورية، ولكنه أتاح لنا نحن الذين عز علينا الاتصال به في قاعات الدراسة بدار المعلمين أن تلقفنا إصداره تباعاً ثلاثة كتب من تأليفه صدرت بالتتالي عام 1955 عن دار الرواد وهي:

1- حضارة الطين.
2- بيني وبينك.
3- في ركب الشيطان.

وصلت هذه الكتب بيننا وبينه نتابع بعض ما يقع أمامنا مما يكتب. كتاباته كانت منذ البداية مفعمة بالإخلاص تجمع بين المعارف العلمية والصياغة الأدبية. كتب على الصفحة الأولى من صفحات حضارة الطين، يسأل قائلاً:

هـذه صـفحات مـن الضـباب الأسـود ... أعـترف بـذلك. ولكنهـا مسـحت خـاطري في فـترة مـن الـزمن، فأذعتهـا أحاديـث هنـا وأحاديـث هنـاك. ولا يعـذرني في جمعهـا إلا أنهـا مفعمـة حتـى الفـيض، بـالإخلاص، وإلا أنهـا كانـت، علـى ريبيتها، سبيلي إلى الإيمان بالإنسان.

أتراها تكون سبيلك أنت؟

كان مؤمناً بالإنسان، وكان يدرك ما يحيط بهذا من مخاطر، فكتب في عام 1982 بحثاً جاء فيه قوله:

صحيح أن غوائل كونية تتجمع نذرها هنا وهناك منذ الخمسينيات، تهديدات جديدة للإنسان لم تكن من قبل في الحسـبان أخـذت تـبرز في الآفـاق، طلعهـا كأنـه رؤوس الشياطين، وهي تتعقد في التكوين وتزداد في الوقت نفسه قـوة في السـيطرة والخطـر علـى المصـير الإنسـاني: نضـوب الطاقـة السـريع والمتوقـع في احتيـاطي الـبترول مـثلاً، وتلـوث البيئـة، وانهيـار التوازنـات بسـبب الثـورة التكنولوجيـة وهـي أخطر على الدول الصناعية من قنابلها الذرية والنيوترينية، كليمنصو حوالي العام 1922 قال:

بعـد الآن سـتكون نقطـة الـنفط لـدى الأمـم والشـعوب بثمن نقطة الدم.

وبالمقابل الانفجار السكاني، وزحف الصحراء، وتزايد الجوع أغوال تفترس بدورها العالم النامي، وتدمر العلاقة بين الإنسان والبيئة التي يسكنها، وتمزق البنى الاجتماعية الهيكلية المستقرة.

حرصه على الإنسان دفعه لتوجيه الاهتمام إلى قضية الأمن الثقافي الذي هو الأَولى من كل الدعوات إلى قضايا الأمن التي تطرح كل آن كالأمن الغذائي والمائي، لأنه السبيل الضروري لحفظ الهوية الحضارية للإنسان.

جمع في كل ما كتب بين الفن والطبيعة المادية والاجتماعية معتبراً أن المدخل إلى فهم تاريخ شعب من الشعوب أو أمة من الأمم وفهم آدابهما وفنونهما لا يقوم إلا على أساس من فهم البيئة الاجتماعية والطبيعية. ومنذ بداياته كان يربط بين الفنون على اختلافها مع الأدب، ورأى أن العمليات الإبداعية في هذه الضروب من النشاطات الإنسانية إفصاح عن مكنون الذات واختلاجاتها في الأعماق. والإبداع عنده نوع من تحرير الإنسان والانعتاق من الغموض والضبابية التي تختلط فيها المشاعر والأفكار.

وكان له اهتماماته في عالم الأدب وخاصة في القصة القصيرة وقد كانت موضع نقاش من حيث أصالتها في

الأدب العربي، فكان أن نشر كتابه المهم (محاضرات في القصة القصيرة حتى الحرب العالمية الثانية) الصادر عام 1958 والذي عدّه المهتمون بهذا الفن الأدبي فتحاً في هذا الباب لتفرده، وليكون في حينه أول دراسة في هذا المجال، جاء فيه:

ليست القصة والرواية دخيلتين على تراثنا الأدبي، فلنا في الفن القصصي أسلوب وخصائص وسمات تجعله ابناً شرعياً للأدب العربي. فليست القصة جديدة في الأدب العربي والجديد فيها اليوم والدخيل أيضاً هو هذا النهج الغربي في العرض والأداء، ونحن حقاً اقتبسناه مع السترة والبنطال. وأظن الدكتور العجيلي يوافقني الرأي على أنه ليس ضرورياً أن ينطبق نهج أمة في النتاج الأدبي مع نهج أمة أخرى، وليس عدلاً أن نقيس جاحظ القرن التاسع أو حريري القرن العاشر في الحضارة العربية بتشيخوف القرن التاسع عشر وبيرل بول القرن العشرين في حضارة الغرب.

نشر في سلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت في أيار 1986 كتابه (الأدب في البرازيل)، جاء في تحديد هدفه من هذا الكتاب قوله:

أردت أن ألقي القارئ في أجواء البرازيل الحارة أو أنثرها أمامه في غاباتها الوحشية، وعبر سمائها ذات الزرقة اللازوردية، وعلى آفاقها في بعدها اللانهائي وبين ناسها الذين تختلط فيهم كل ملامح البشر وكل ألوان البشر دون هذه الأجواء لا تستطيع فهم البرازيل والنفاذ إلى أدبها الحار القلق.

مع الأهمية البالغة لمؤلفاته المشار إليها أعلاه، إلا أن إنجازاته في باب البحث التاريخي ستتبوأ المرتبة الأولى في التعرف إلى هذا الأديب الأريب والباحث الكبير. فهو إذ بدأ في التعريف باتجاهاته الفكرية من خلال كتابه: (العرب في التاريخ) الذي صدر في وقت مبكر، وأنجز كتابه (مؤرخو العصر السلجوقي والأيوبي) الذي حصل من خلاله على شهادة الدكتوراه تابع مسيرة حياته كمؤرخ ومفكر من المجلين في هذين البابين، التاريخ والفكر.

دخولنا إلى عالم شاكر مصطفى لا بد أن يبدأ من التنويه بمشروعه الضخم (التاريخ العربي والإسلامي) الذي صدر جزؤه الأول عام 1978 وهو يُشكّل موسوعة تاريخية وفكرية شاملة، أتى فيها على ذكر المتحدثين والمؤرخين في التاريخ العربي والإسلامي وعدّد الكثير من ذلك الكم الهائل من المؤلفات التي أحاطت هذا المجال بعنايتها.

بيّن الأسباب التي دفعته لامتطاء هذا المركب الخشن وما تطلبه من عمل جاد وأصيل، مؤكداً على دور العرب في ريادة الكتابة التاريخية وفي التأسيس لعلم التاريخ وتطوره ونمائه، والإسهام فيه من خلال المؤلفات الضخمة التي أمكن التعرف إليها وتحقيق بعضها. وبين بالدليل على أن العرب كان لهم السبق في علم التاريخ تدويناً وتحليلاً، وأن التاريخ نفسه خير شاهد على أنه لم يكن لأي أمة من الأمم اهتمام بالتاريخ مثلهم.....

وبأخلاق العالِم وإخلاصه لم يفت شاكر مصطفى أن ينوه بجهود من سبقوه في البحث التاريخي.

وهو لم يدخل مجالات البحث التاريخي خالي الوفاض بل كان له من الاتجاهات في هذا الشأن ما يؤكد أصالة تفكيره واتساع أفقه، منه رأيه في مفهوم الزمن وعلاقته مع البشر، كتب:

إني أشك في أن الزمن هو الذي يمر بنا، نحن بني البشر، بل نحن من نمر به، نحن الذين نقطع هذا الذي نسميه زمناً وتاريخاً وصيرورة وأزلاً وأبداً.

ومن أفكاره أيضاً ذات الشأن في جهد المؤرخ:

سمي الإنسان عاقلاً لأنه مؤرخ. فكلمة التاريخ من حيث أنها مفهوم تعني تدوين الأحداث وكتابتها، وهو –أي التاريخ- من هذه الناحية عملية إنسانية بحتة يصور الناس من خلالها ويتصورون حياتهم والأحداث التي مرت بمن سبقهم والتي تمر بهم في الصحف وفي الآثار، ويعيدون عن طريقها ذكرياتهم وتذكرهم لما يسميه البشر ماضياً، فيعيدون بناءه.

يقوم الإنسان وحده دون غيره من المخلوقات بهذه العملية، وهي العملية الأساس التي يبرز تراكمها الحضارة الأولى، والتي نسميها، ربما، بالتقدم الإنساني.

وفي نظرة شاملة للعمل في التاريخ من حيث كونه علماً يقول:

قد تكون مفردات التاريخ مواده الأولية، وعناصره المكونة الموجودة قد دونت، لكن التاريخ نفسه لم يكتب ببناء تاريخي متكامل حي.

ويبين أن تدوين التاريخ شيء وكتابته شيء آخر. ويضرب مثالاً يوضح فيه فكرته بقوله:

أرأيت لو جمعت الحديد والرمل والإسمنت والحجارة أكواماً أتسمي ذلك بناء؟ أتقبله ولو عشاً، أو كوخاً لا قصراً؟ تلك في اعتقادي هي الصورة.

الآثار الأدبية والفكرية التي أغنى بها شاكر مصطفى المكتبة العربية كثيرة، منها:

- العرب في التاريخ.
- حضارة الطين.
- بيني وبينك.
- في ركب الشيطان.
- محاضرات في القصة القصيرة حتى الحرب العالمية الثانية.
- الأدب في البرازيل.
- الأندلس في التاريخ.
- معنى السلام عند إسرائيل. ماذا تريد إسرائيل؟
- موسوعة العالم الإسلامي ورجالها.
- بين الأدب والتاريخ.
- المنسيون في التاريخ.

ـ في التاريخ الإسلامي.

ـ المدن في الإسلام حتى العصر العباسي.

ـ من ذكريات الغزو الإفرنجي.

ـ وجوه من العهد الصليبي.

ـ صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه.

ـ من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس.

ما ذكرنا من كتبه شكل قائمة بالثمار الطيبات التي خطها قلم شاكر مصطفى يتجاور فيها البحث العلمي والجهد الفكري مع عبق الحرف واللغة الأدبية العالية، ومثل هذا قلما تجود به أقلام كثيرة.

سيجد القارئ مصداق ما امتازت به شخصية هذا العَلَم بين أنداده من الصدق فيما يسطر ومن تفاعل القول والفكر مع العمل، سيجد كلماته الأولى في هذا الكتاب حضارة الطين. يدور بين عناوينه على ما تعنيه الحضارة المعاصرة وما يعانيه الإنسان من جراء سيطرتها على مسلك الدول والمجتمعات والأفراد، ومظاهر القلق والتمرد وما يمت منها فيما يتعلق بالجسد وفيما يمكن التنبؤ به من صور ما

تؤول إليه حضارة الغد. ولأن الكاتب الباحث والمؤرخ يؤمن بالإنسان فيتابع كل ما يتعلق بشؤونه وشجونه وبما يعانيه من ضغوط وإشكاليات في ظروف حضارة لها ما لها وعليها ما عليها. يقول: الحب وحده أنتظر لأستسلم لذراعيه، كما يقول طاغور. لكنه يخاف على الإنسان إنسان العصر من العطالة الإبداعية التي لا تغيب عن عين المراقب حيث تسم بميسمها المجتمعات المتخلفة بخاصة ما يتعلق بالجانب الثقافي. فقد تقع هذه المجتمعات في شرك التقليد. وقد تصنع لنفسها شرنقة تقبع وراءها أو داخلها قداسة الماضي أو الاستسلام لمفاهيم لا تمتلك سوى التهويل بالشعارات ووهم الحداثة. يقول:

العطالة الإبداعية تعني انغلاق الثقافة ونهاية دورة الحياة الإبداعية، وبالتالي انقطاع الاستمرارية الثقافية الحية وموت الهوية الحضارية. وإن العطالة الجزئية بدورها، إن استخففنا بها ستكون بدورها أشبه بشلل الأطفال في الحركة الذاتية فينتهي بضمور تلك الهوية وقعود الجماعة عن العطاء. وتتحول صدمة الحداثة إلى ضربة قاضية نتيجة لتوقف الأصالات حتى وقوع الجماعة في التكرار والحلقات المفرغة. ويدخل في ذلك مظهر ثقافي يتصف بجفاف التراث

حتى يصبح قشوراً ميتة وتسطيحاً للتاريخ ويتحول عبئاً وعذاباً وقصائد فخر تعويضية.

في كتاب شاكر مصطفى الذي اخترناه دعوة للإنسان أن ينتصر على حيوانيته ليبرهن على كونه إنساناً. الخوف على الإنسان أن يفقد إنسانيته إذا ما استسلم إلى مسلمات تحد من شعوره بالحاجة إلى تجاوز شهواته وأطماعه. وعلى الرغم من كل الممارسات الخاطئة والعقائد الجامدة يؤكد الكاتب على أهمية الإيمان بالتقدم العلمي لا بالقداسة والإيمان بالعقل لا بالكمال المطلق والثقة بالإنسان نفسه لا بالثقة بما فوق الإنسان.

وعن حضارة الطين يتحدث الباحث المؤرخ والكاتب الأديب فيقول:

قصة البشر تبدأ في الطين وفي الحمأ المسنون هكذا رووا عن جدنا العتيق آدم، الذي صاغه البارئ من تراب ثم ألقاه إلى كتلة الطين هذه، التي يدعونها الأرض، ليعيش هو والقطيع الضال من أنساله على الطين وفي الطين. ويقف عند هذه الحضارة وجلاً، فإن إنسانية اليوم كأنها كذلك المجنون هنري الرابع في مسرحية بيراندیلو، تتابع المسرحية فلا تدري أهو مجنون في رداء عاقل أم عاقل أراد أن يعيش جنونه.

فإن لم يكن تقدم الإنسان صحيحاً فيجب أن نريده ونسعى إليه ولئن لم يكن هذا الكائن الإنساني قد تقدم إلى اليوم فبإمكانه دون شك أن يتقدم، أن ينتصر على حيوانيته، أن يبرهن أنه إنسان.

شاكر مصطفى في كتابه هذا الذي مضى على نشره أكثر من ستين عاماً، عبر فيه عن ثقافة واسعة، الكلمة الجميلة كانت أهم ما تميزت بها كتاباته منذ حضارة الطين إلى تلك المقالات والأبحاث الأخيرة التي نشرها في دوريات عربية مختلفة وعديدة. ويتساءل نزار قباني وهو يتحدث عن الكلمة الجميلة عند شاكر مصطفى، فيقول: وما هو الأدب إن لم يكن الكلمة الجميلة التي لا تفتح أمامك مغالق صخرة علي بابا فقط على حد تعبير شاكر مصطفى وإنما تفتح أمامك ألف نافذة على وجه الله..

وليس أدق من وصف نزار لجهد صديقه من قوله:

أحبه لأنه فاتح درب شقها بمحراث منحوت من أضلعه ودوزن كل حصاة وكل حشيشة فيها.

في الحضارة

حضارة الطين

قصة هذا البشر تبدأ في الطين وفي الحمأ المسنون! هكذا رووا لنا عن جدنا العتيق آدم، الذي صاغه البارئ من تراب ثم ألقاه إلى كتلة الطين هذه، التي يدعونها الأرض، ليعيش هو والقطيع الضال من أنساله على الطين وفي الطين.

ويخيل إلي أحياناً أن اللعنة التي تلاحق البشر منذ عهد الخطيئة الأولى والفردوس المفقود ما هي في واقعها إلا ذلك الإطار من الطين، طين الأرض، الذي ضرب حول الإنسان وحدد مدى يده وبصره. فهو لا يرى ما في السماء إلا من خلال الطين ولا يبني حضاراته إلا على الرمال ولا يقيم مفاهيمه الكبرى إلا في الوحل والتراب.

وتمر أمامي هنا في عرض كعرض أعياد المساخر، ملايين المجلدات التي تروي لي ولغيري تاريخ البشر وأخبار الذاهبين الأولين وقصص الحضارات العلى وأحوال الذين تركوا..

في الـــدنيا دويـــاً كأنمـــا

تداول سمع المرء أنمله العشـر

فلا أرى من ذلك جميعه سوى صورة واحدة مكرورة:

صورة هـذا الحيـوان الـذي وقـف علـى سـاقين ولـكـن مـا انفكـت عينـاه تبحثـان عـن الطعـام في الأرض ويـداه تعمـلان على تكـويم الـتراب أكـواماً يـدعوها مـدناً! وليس بعـد ذلـك شيء، سوى بعض اللغو الذي يدعونه فكراً وأخلاقاً وفلسفة وعقائد وعلماً..

قـد تـروع هـذه الصـورة العتمـة بعـض المـؤمنين بالتقـدم الإنساني المستمر، والـذين يتصـورون الإنسـانية صـاعدة علـى درج: أقدامه في الأرض وفروعه تداعب النجم وتطل على الملأ الأعلـى. ولـكـني أؤكـد أنـي نزعـت، قبـل أن أقـول هـذا، نظاراتي السود. وليس الـذنب ذنبي إن كـان الواقـع مكفهـر اللون جهم الانطباع!. ثم إني بعد هـذا لسـت أكـره كـثيراً أن أعارض أنصار التقدم الإنساني هؤلاء، ولعلي بالعكس أجد ما يغريني بـأن أعلـن عنـد أنـوفهم أنـي لا أؤمـن بهـذه الفكـرة الـتي اهـترأت مـن القـدم والـتي جالـت بـرأس بهلـوانين مـن بهلوانات الفكـر في القـرن الثـامن عشـر فمـا بـرح النـاس ومـا

زالوا وما انفكوا وما برحوا... الخ يجترونها من بعدهم إلى اليوم. إني لا أجد كبير فرق بين تلال التراب التي بناها البشر في أدنى العراق ليعيشوا منذ خمسة آلاف سنة، وبين عمد الفولاذ التي تحك صدر السماء في نيويورك وموسكو اليوم. ومن تراه يقنعني بأن المغولي الوحش جنكيز خان الذي أخرج أهل بخارى منذ ثمانية قرون إلى ظاهرها فذبحهم جميعاً وهم مليون ونصف المليون هو غير ترومان الرئيس الأميركي المبجل الذي أباد هيروشيما وأهلك أمس مدينة بأسرها في كوريا؛ وأي فرق ترى بين الإسكندر ذلك الجزار الكبير وستالين أو بين يوليوس قيصر ذلك المهرج الشعبي العتيق وتشرشل؟ وأي فرق ترى بين الذين أعلنوا البيان الثلاثي القاضي بتسليح العرب واليهود معاً وبين أباطرة روما الذين كانوا يسلحون العبيد في الملاعب ليلهوا بقتل بعضهم لبعض؟ ثم ماذا أفادت البشرية من أنهار الدماء التي أراقتها آلاف الأجيال في الحروب؟ وهل منعها ذلك من أن تعود فتحكم في خلافاتها ذوي الخوذ الفولاذية وذوي النجوم والأشرطة على الأكتاف؟ وأخيراً من يستطيع أن يؤكد لي ـ وهو الأهم عندي ـ إن إنسان هذا القرن الذي ركب الطائرة واستعمل الكهرباء واستكانت له القوى

الذرية.. هذا الإنسان هو أسعد من إنسان الغاب وأكثر طمأنينة.

قد يكون هناك تغير في طرق الحياة، في الرفاه والدعة الجسدية، في الغرفة المكيفة الهواء وفي يوم العمل ذي الساعات الثمان وفي عيش السوري على قمح أستراليا والأميركي على بترول العرب، تغير في كل شيء يأتي به المال ويرفه به الجسد والمادة، ولكن ليس في النفس والخلق وليس في الشيء الذي يسمو بالإنسان ويجعله أجدر بحمل صفة الإنسانية. ليس ثمة تقدم مطرد. لقد طردت هذا الوهم من نفسي منذ زمن فالإنسان الذي يلبس البنيقة لمنشأة ويقبّل يد السيدة في حفل الاستقبال مازال نفس الإنسان الذي كان يغطي الشعر الكثيف جسده ويلتهم أخاه الضعيف في عطفة الكهف!

ولعل الأصح أن نقول إن ثمة تطوراً مطرداً فما في التطور شك والحياة ما دامت مستمرة فهي في انتصار دائم على العدم أي في إبداع وتجدد مستمرين.. في تطور. وليس من الضروري بالطبع أن يكون لهذا التطور اتجاه حتمي دائم، سلبي أو إيجابي، إلى أمام أو إلى خلف ولسنا نحن على الأقل

الذين نعرف له اتجاهاً! وإلا فمن يضمن لي أو لغيري أنه ليس سيراً إلى يمين أو يسار أو ليس بدوران لولبي أبله في فنجان؟

لهذا أجدني أبتسم كلما رأيت عقيدة من العقائد تحاول أن تأخذ الشكل المهيمن وكلما رأيت حضارة من الحضارات تطمح لأن تعتبر نفسها الحضارة النهائية أو رأيت حقيقة تريد أن تقنع الناس أن ليس بعدها من حقيقة... إن التاريخ، هذه المقبرة النتنة، ليقئ بجثث العقائد والأعمال والرجال ممن انتهت إليهم الدنيا والقمم وليس لهم اليوم في المقبرة سوى أسطر كشاهدة القبر عليها الاسم والعمر وطلب الغفران!

والمحاولات الكبرى التي رفعت بها الإنسانية رأسها إلى السماء سجلها موسى وعيسى ومحمد في الديانات السماوية الثلاث وزارادشت في عبادة أهرمن وبوذا وبراهما وكونفوشيوس في مبادئ السلام والمحبة والخير التي بشروا بها. ولكن هذه المحاولات العميقة الرائعة تختنق اليوم أمام تيار الحضارة التي يعتبرها الناس قمة التقدم الإنساني وهي أقل الحضارات محاولة للسمو وأضأل المدنيات تطلعاً إلى ما وراء المادة واسمحوا لي أن أقف عندها فهي الآن حضارتنا نحن أيضاً. وأزماتها أزماتنا نحن! لقد أغلقت الباب الأزرق

المرصع بالنجوم باب السماء منذ أيامها الأولى، في عهد النهضة، حين بدلت طريق المعرفة واتجهت لبحث العلائق بين الأشياء بدل البحث عن ماهياتها..

قامت دون مثل أعلى. وربطت نفسها إلى الطين والمادة والجسد أَفعجيب بعد هذا أن نراها تتخبط في الأزمات الفكرية الساحقة بين حين وآخر؟

لقد بلغت حضارة الغرب أوجها ووصلت قمة الفرح والتفاؤل في القرن الماضي ولكنها منذ مطلع هذا القرن جعلت تعاني أزمة في الروح تستطيع أن تسبر أعماقها السوداء عند أمثال كفكا وتزفايغ وفي الوتر الحزين الذي عزف عليه شوبنهور وسارتر. إنها تألم لأنه ليس فيها من فكرة قائدة موجّهة. إن الإيمان بالقيم وتقديسها فكرة شرقية تجدها لدى العرب والهنود والروس كما إن الثقة بتقدم البشرية فكرة أميركية أما أوروبا خاصة فلا تؤمن بشيء أو فلنقل أنها لا تؤمن إلا بالمغامرة والسعي وراء المجهول. لا تدري أين تتجه ولكنها مملوءة جنوناً بالسير ويقتلها التوق للاكتشاف.

إن كولومبوس وباستور وكانت وداروين كانوا يعرفون من أين يبدأون أكثر بكثير مما كانوا يعرفون أين يقصدون.

وحضارتنا تألم أيضاً لأنها فشلت في كل شيء عانته، فشل العلم الوضعي فشلاً نهائياً لا كموقف فلسفي ولكن كحقيقة لا يأتيها الباطل ونبت فشله في صميمه كما تنبت بعض الأزهار البرية من قلب الصخور.

وفشل العقل ذلك المهيمن البارد الذي لا يشاركه أحد سلطته: فشل بمنطقه وأقيسته وتجريده وظله الثقيل. وصبية الفكر يعرفون اليوم أنه ليس بالحصن الوحيد للمعرفة!

وفشلت العقائد، نعم العقائد! وما في الناس اليوم من إنسان يستطيع أن يبين لك بدقة ما يؤمن به هو نفسه وما يجب أن تؤمن به وما هو جدير بالاحترام الأزلي من ضروب الإيمان.

وأخيراً فشلت القيم الأخلاقية وقد أضحى من المبادئ الكلاسيكية المقررة أن هذه القيم نسبية تتطور وتتغير وتهبط وتعلو وينخر فيها السوس أيضاً وتأوي الجرذان!

أضف إلى كل هذا أنه لم يعد ثمة توازن بين مستوى البشر الروحي ومستواهم المادي "فهذه الآلات التي تتحرك اليوم بالنفط والفحم قد وهبت الجسد امتداداً هائل السعة والقوة كما يقول برغسون ـ ولكنه غير متناسب مع سعة الروح وقوتها لأن هذه الروح أصبحت بالنسبة للجسم المادي

المسيطر ضعيفة جداً لا تستطيع أن توجهه وأضحت صوفية الفكر أضأل بكثير من مادية الآلة.

واتسع بين الشقتين فراغ ما يزال يفغر فاه يوماً بعد يوم وفي هذا الفراغ تكمن المأساة الكبرى لهذا العصر. وإذا كان يكفي الإنسانية عدد معدود من العلماء لمنحها القوة الهائلة فإنها على ما يظهر تحتاج لآلاف من الحكماء ليجعلوها جديرة باستعمال تلك القوة.

إن صيحات القلوب المنسحقة تتعالى بقوة يوماً بعد يوم والكثيرون نعوا الحضارة الحالية للناس وأعلنوا على ـ الإصطلاح السياسي ـ بدء النهاية منذ اشبنغلر صاحب (انحطاط الغرب) إلى غروتيه ومن بندا صاحب (خيانة الإكليروس) إلى مالرو وباربوس، إلى الإنكليزي هكسلي، إلى الإسباني أورتيغا أي كاسيه.

كل هؤلاء كانوا أبواقاً تنشر الذعر والخوف. حتى غدا العالم وكل من فيه خائف يترقب. لقد جعل العلم منا أنصاف آلهة قادرين على أشياء كثيرة قبل أن نستحق أن نكون بشراً. وهذا هارول أورى كاشف الهيدروجين الثقيل وحامل جائزة نوبل وأحد الذين عملوا للقنبلة الذرية يقول في فقرات غريبة التجهم والسواد:

"أكتب لأخيفكم.. أنا نفسي خائف.. كل العلماء الذين أعرفهم خائفون... الأرض دار الرعب هذا أين تسير؟ ويكاد المفكرون اليوم يعيشون في شبه دوامة من الأحداث أسرع من أن تسمح لهم بالوقوف والنظر إلى الوراء وإذا كانت سرعة الحضارة الحالية من القوة بحيث تجعلنا نعيش قروناً عديدة في سنين معدودة فالكثيرون يخشون بسبب هذه السرعة نفسها أن تأتي النازلة فجأة بالحضارة فتختم حياتها العنيفة في ما يشبه الانتحار تماماً كما ينحني الأفعوان بنابه على بطنه فيعضه منتحراً عند الجوع.

إن إنسانية اليوم كذلك المجنون هنري الرابع بطل مسرحية بيراندیلو الكاتب العالمي. تتبع المسرحية فلا تدري أهو مجنون في رداء عاقل أم عاقل أراد أن يعيش جنونه. والإنسانية اليوم أضاعت حس التفريق بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الجمال والقبح لكثرة ما ارتسم أمامها من دروب متشابكة. أتراها بلهاء وتتصنع الوعي والعقل أم تريد أن تعيش جنونها؟ لست أدري ولكني أعتقد أنا لسنا بحاجة لعيون كبيرة كيما نرى أن الإنسانية اليوم تهمل مشاكلها الأساسية كما يهدئ الملك لير في مسرحية شكسبير الشهيرة جنونه في العاصفة.

لقد بدأت قصة الإنسانية في الطين واستمرت في الطين
كذلك وأنا واحد من ملايين يخشون أن تنتهي هذه القصة
الكبرى في الطين أيضاً وأيضاً.

حضارة القلق

تروي الجدات للأحفاد في الصين هذه الخرافة؛ تروين أن جمع الآلهة الذي يسكن عالياً عالياً ويرى السحب من تحته كما نرى نحن من فوقنا خفقة النجوم، عاش أدهاراً مكرورة مملة حتى بدا لواحد من هذا الجمع: الإله (لي ـ تسو ـ هو) أن يتعرف أسرار زملائه الآلهة! أخذ يتسمع إلى الهسيس ويتنصت إلى وشوشات الهمس. وبعض ذلك الهسيس خلجات حب وبعض ذياك الهمس مؤامرات تحمر لها الوجنات الصفراء.. وسرعان ما عرف الآلهة عند (لي تسوهو) نزعة الفضول ورأوا نظرات عينيه تحول نظرات ماكرة كأنها تعني أنها تعرف عنهم الكثير الكثير.. فاضطربوا و..

أجمعوا أمرهم عشاء فلما

أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

وجاؤوه فقدموا إليه كأساً من نبعة النسيان وأجبروه على شربها فأحس كأنما دبيب الضباب قد غلف رأسه وقلبه؛ وأدركتهم نشوة الظافر المنتقم فتركوا له قلق الفضول يعمر نفسه ثم حملوه إلى هذا الكوكب القصي: الأرض، وأوكلوا به شعلة تلاحقه خلفه ليركض أبداً ويركض حتى يلحق ظله المرتمي أمامه.

وتبرع بعض الآلهة زيادة في الكيد أن ينتثروا نجوماً في السماء ترقص لهذا المسكين القلق كلما دجا الليل، وتضحك له بالأمل كلما أعتمت نفسه.

إني ما قرأت مرة جويس أو جيد أو تزفايغ ولا استمعت إلى ألحان (سترافنسكي) و(واغنر) ولا تيسر لي أن أضيع لحظات في لوحات سيزان وبيكاسو وبراك بل ما فكرت مرة في الإنسان الحديث، إنسان هذه الحضارة الغربية إلا خيل إلي أني أرى فيه طيف ذلك المعذب لي ـ تسو ـ هو!

لقد تعب الكثيرون في تقصي ميزات الحضارة الغربية الحديثة واستشفاف ملامحها. قالوا عنها أنها حضارة العلم الوضعي وأنها حضارة المادة والكهرباء والآلة والذرة وأنها حضارة الإنسان والاشتراكية ولكني أرى من وراء ذلك كله وقبل ذلك كله أنها حضارة القلق. تاريخها كله،

شخصياتها التي أنبتتها، إنتاجها الذي أبدعته، كل لفتة وكل سانحة فيها تدمغها لعنة القلق وأحياناً القلق الشرس العنيف.

وقد يبدو للنظرة العابرة أن هذه الحركة المضطرمة في الفكر الغربي إنما هي اضطرابة الحياة النامية فحسب، ولكل ذي حياة اضطرابة ورعشة، كما قد يبدو ذلك القلق نوعاً من التبذير والإفقار الذليل لكني سأعرض في مثل نظرة الطائر العجول إلى تاريخ الحضارة الغربية وإلى شخصياتها وإنتاجها لعلي أبين كم تختلف هزة القلق التي تسحق الإنسان الحديث عن الرعشات الناعمة التي تدل على نمو الحياة وكم أخصب الفكر الغربي وانهلّ ثمرات ملونة حين اختار سبيل القلق وأخيراً إلى أي مدى يختلف طريق الغرب عن طريق الشرق؟

يبدأون التاريخ الغربي عادة بتاريخ اليونان وأول رعشات القلق تبدت على الروح الأوربية في اليونان: تنزلت على ألسنة السفسطائيين وفي شفتي سقراط الحكيم. وإذا كان الغنوص الشرقي قد لفف الرعشة وخنقها بصوفيته الحارة الآسرة فإنها عادت فانتفضت في الغرب من جديد في ما سمي بعصر النهضة الأوربية.. منذ خمسمائة سنة!

في تلك السنوات بدأت الروح الأوربية تضطرب وتخضع من جديد لقدرها القلق. هزتها أزمة كيانية لونت كل مسارب حياتها!

هكذا ارتمت شعوب أوربا على الموج وزحفت مع كل شراع تكتشف العالم. فكانت الاكتشافات الجغرافية التي احتضنت كوكبنا من القطب إلى القطب، وتمردت أوربا على مفاهيم الشرق الروحية فكانت ثورة لوثر التي غيرت مركز الإنسان من الله.

وتخلصت أوربا من العبودية الفكرية حين نظر كوبرنيك من شقوق غرفته إلى السماء فجرح آيات مقدسات ما اجترأ عليها من قبله أحد.

كانت أوربا تستيقظ وكأنها جميعاً عيون بكل أفق ولم يكن هناك من فكرة واحدة تلمها ولا دين تجتمع من حوله، كما كان شأن اليقظات العربية والإيرانية والهندية. كانت إذن تتلمس طريقاً جديدة لا تعرفها ولكنها تريدها: "إني أحسّ صدري يتمزق وجميع جوارحي قد تأثرت متشوقة إلى شعور جديد وإحساسات لا عهد لي بمثلها" هكذا قال غوته. وما يزال هذا شعور الحضارة الغربية إلى اليوم وإنا لنستطيع أن نتابعه بوضوح منذ القرن السادس عشر فنراه

يستطيل نظارةً ترود السماء في يد غاليله ويتسلل قانوناً للجاذبية على أصابع نيوتن وينساب إلحاداً وشكاً وإيماناً في صحف نيتشه وديكارت وكانت!

بل نراه يصرخ في كل تلك الاضطرابات السياسية منذ الثورة الفرنسية إلى اليوم ويظهر في ذلك الاندفاع العلمي المحموم عند باستور وإديسون وداروِن ويجهز كل مذهب اجتماعي بحجة وكل خصومة بدليل. إنه القلق دوماً وراء كل زاوية ولفتة.

وإذا كان الفن أصدق جوانب الفكر تعبيراً وأكثرها عفوية وأصالة فليس كالفن الأوربي فن رقص القلق له!

بل إن هذه العاطفة لتأخذ شكلها المرضي، الواضح والخصب معاً في كل ما أنتج الأدباء والفنانون منذ أواخر القرن الثامن عشر بل قبله أيضاً. أأذكّركم كم بدون كيشوت الذي انطلق برمحه الخشبي وفرسه الأعجف ليحارب الشر وينشر الخير وكم في هذه الصورة من هزء ويأس؟ أم أذكّركم بتلك الشخصيات الكبرى التي التقطها أدباء الغرب من التاريخ والأسطورة أو أبدعوها بأنفسهم وملأوها بأفكارهم ومواقفهم من الحياة والكون. إنها لا شك نماذج صادقة تصلح للاستشهاد:

في رأس هذه القائمة تأتي دون شك شخصية الدكتور (فاوست) الذي صرخ في لحظة قلقه العرم للجمجمة أمامه: "هل تضحكين لأن مخك مثل مخي دفعته الحيرة إلى البحث وراء النور فألقى نفسه في ظلام حالك؟" ثم شخصية (دون جوان) المتقلب بين الفجر والجبن وبين المثل الأعلى والاستهتار وشخصية بروميثيوس المتمرد على الآلهة والمعذب الأول، وموسى الذي يبتهل إلى ربه أن يمنحه حياة الأرض؟

إن تأملات الإنسان الحديث القلقة أمام الطبيعة وأمام مصير الإنسان الحائر، تعبر عن نفسها على لسان كل من فاوست في حجرة عمله القوطية و(مانفرد) على ذرى الألب الوعرة لبايرون ويسوع على جبل الزيتون لفينى. كما أن (قابيل) للكونت دوليل والأجداد لميكيفيكس والكأس والشفاه لموسه وآدم ــ الإنسان للدانمركي بالداون مولر وأوتار القيثارة السبعة لجورج ساند كلها قصائد تجسد جانباً من جوانب الإنسان الحديث وتطرح مشكلات الحب والمصير والسعادة في جو رهيب من السر والقلق والاندفاع الجنوني.

إني لأذكر في خاتمة هذه القائمة شخصية (ك) بطل قصة (القضية) لفرانز كافكا ذلك الذي اتهم لا يدري

كيف اتهم؟ وحكم لا يدري كيف حكم؟ ثم نفذ فيه حكم الإعدام بالفأس فما نطق بغير هذه الكلمة: "كما يموت الكلب"! أهذه خاتمة المضطرب القلق؟.

كم يؤسفني هنا إني لا أستطيع أن أعرض أمثلة من قلق بتهوفن وواغنر وسترافنسكي لأني سأحتاج إلى ألحانهم معي وليس بطوقي الكلام عن دولاكروا وغوغان وبراك وأين لي وصف ألوانهم ورعشات الريشة على تلك اللوحات المترعة؟ فلأكتف إذن بأن أؤكد تلك الوحدة العميقة التي تشمل حضارة الغرب بقدر واحد هو... القلق. ولأنتقل إلى نوع من المقارنة، لعله يلقي على فكرتي ما أريد من النور، فأضع الشرق، شرق الأديان السماوية والصوفية الروحية، تجاه الغرب غرب المادة والجسد والقلق.

وإني أَختار لذلك شخصي غوته وطاغور.

فأما غوته فأقتطف له هذه المقاطع من (ورتر) "إني أشعر بحاجة إلى ما يسكن من ثورة دمي الفائر.. أنت تعلم أن ليس من قلب أشد تغييراً ولا أكثر اضطراباً من قلبي" "أن طمأنينتنا في كثير من القضايا إنما هي استسلام وإذعان أساسه الوهم والفرض"

"آه يا صديقي ألا تأتينا هذه الرغبة في تغيير أوضاعنا من قلق داخلي سيلاحقني أنىّ حللت" "كأني بقوى خفية تدفع بي إلى السير أبعد فأبعد حتى آتيه في تأمل بعيد لا نهاية له" وأخيراً هذا المقطع من فاوست: "يا ينابيع الحياة التي تستقي منها السماء والأرض والتي يتلهف إليها كل صدر أحرقه الظمأ إنك تفيضين وتروين وأنا هنا أشتاقك ولا سبيل إليك!".

وأما طاغور فأوقف منه عند قرابين الأغاني وأقرأ في نجوى لإله: "إن نبغ نيل العالم كله لم ننل شيئاً إنما إن تقنا إلى شيء محدود ونزعنا إلى هدف معين لاح لنا حينئذ منفذ الولوج إلى اللامتناهي".

"عطاياك لا متناهية ويداي صغيرتان لكن اسكب فسوف تفنى الأجيال ويبقى في يدي فراغ".

"ثقيلة هي قيودي ولكن قلبي يتألم إذ أحاول كسرها"

"الحرية كل مناي ومع ذلك أشعر بخجل حين أصبو إليها!"

"ديوني كثيرة وإفلاسي كبير ومع ذلك أرتجف إذ أطالب بما لي مخافة أن أناله.

"إني أراك نازلاً عن عرشك بين دهشة الواقفين على حافة الطريق لتلمني من بين التراب وأراني جالسة إزاءك فتاة فقيرة تكتسي ثوباً رثاً وترتجف حياء وعجباً كأنها نبتة متدلية في مهب نسيم الصيف!".

"كثيرون الحاذقون في قصرك ومتواصلة أغانيهم ولكن استهوتك بساطة نشيدي أنا البادئ المتمرن".

وأقرأ أخيراً هذه الأغنية من قرابين الأغاني وأجد فيها رد الشرق الروحي على الغرب.

"في فجر الخليقة حين سطعت النجوم كلها في سناها البكر التام اجتمع الآلهة في السماء وهزجوا: ما أكمله رسماً وأصفاه هناء.

إنما بغتة هتف أحدهم: أحس ثغرة في جدول النور هذا، وإن نجمة قد ضاعت!

عودهم انبتت أوتاره الذهبية وغناؤهم انقطع وصرخوا مذعورين:

كانت أجمل النجوم تلك النجمة الضائعة! كانت زينة السماوات! ومنذ ذلك اليوم وهم يبحثون عنها ويتأوهون واحداً بعد آخر.

بضياعها فقد العالم هناءه الوحيد ولكن النجوم في هدأة الليل العميق تبتسم متهامسة:

"باطل كل هذا البحث! الكل كمال متصل".

***

إني وإن كان يشوقني القلق ويسحقني التشوق المرهق؛ كثيراً ما أجدني واقفاً وراء طاغور على عتبة الحرم الآلهي الذي يقف عنده...

حضارة التمرد

قصة التمرد والمتمردين على الأرض قصة طويلة خصبة اللفتات ما أحسبني مستطيعاً تقصي جذورها في عتمة الماضي وضبابه، ولكني أحبها هذه القصة. ولعل ذلك لأني أحسها في دمي وأعرف أن الناس، كل الناس، ومنذ وجد الناس يبغضون التمرد ويكرهون الخروج على المألوف، يبغضون التمرد لأنه خلق لقيم جديدة ويكرهون تحدي المألوف لأن في العادة راحة في السكون.

والهمود لذة واطمئناناً.

وبالرغم من أن كل ثروة الحياة إنما هي ثمرة التمرد وكل هذه الحضارات التي نتقلب بأيسر اليسر في نعمها إنما هي من إبداع المتمردين إلا أن البشر منذ القديم حفظوا في ضميرهم اللاواعي ذكرى المتمردين الأولين محاطة بصنوف الحقد واللعنة وأنهوا أمرهم إلى الخذلان المبين فأول ثورة

على الأرض، حسب أساطير اليونان، قام بها المردة "التيتان" إذ حاولوا أن يرقوا إلى السماوات العلى بتكويم الجبال بعضها فوق بعض. وقد تجاهل المساكين سطوة هم الآلهة الذين رموا ببعض الصواعق فإذا هم في الجحيم في أعماق الثرى، وإنهم ليذكرون البشر بوجودهم في هذه البراكين الثائرة الفوهات في أنحاء الأرض... ويحاولون الخروج ولكن زيوس الرب الكبير ـ حسب الأسطورة ـ ساهر على حفظ النظام والانسجام الإلهي المقدور في العالم!

و(يزدان) الإله الطيب، في الخرافة الفارسية، إله الخير والنور والصحة يتمرد عليه (أهرمن) رب الشر الخبيث ويهرب منه إلى الظلام فما يزال الصراع بينهما قائماً مستعر الوقد حتى ينتصر في النهاية يزدان ويسود النظام الرتيب الهادئ نظام الخير والنور.

وأخيراً فمن منا يجهل قصة إبليس؟ ومن منا لم يرشق هذا الشيطان الرجيم باللعنة الإلهية لأنه جاء ببدعة التمرد إلى الخلائق وسبب كل هذا الشقاء الأرضي؟...

ولست هنا لأشيد بالتمرد أو لألعنه ولكني ألاحظ أن هذه الكلمة قد بدأت بعد طول الهوان تحتل مكانها بين القيم الكبرى للحضارة الحالية، بدأت تأخذ شكل العقائد

وقوتها الكاسحة. وبعد أن كانت الثورة مقتاً وأمراً نكراً في جميع الحضارات السالفة أضحى الاستقرار والهمود والحفاظ الرتيب على القيم هو النكر والمقت في العصور التي نحياها.

إن مردة البراكين قد فروا من إسارهم الجهنمي على ما يظهر وإبليس قد احتل مكانه المحترم بين بشر هذه الأيام!

وتاريخ الحضارة الغربية ما هو إلا ثورة متصلة، وحياتها ليست غير تمرد على ذاتها وصراع لا يهدأ مع قيم تخلقها ثم تنقضها، وتبنيها لتهدمها فعل الطفل الحنق الغضوب. وأنا لنستطيع أن نراقب تمرد هذه الحضارة منذ فجر نهضتها في القرن الخامس عشر أي منذ أخذت فردية الغربي تبرز وتنشل نفسها من المجموع المتشابه في مجتمع القرون الوسطى. فبعد أن كان الفرد إنساناً بين الناس وعضواً في جموع تشبهه من العمال والأقنان يخضع للواجبات ويحب ذاتها الحب نفسه ويتعبد في المعبد إياه جاء عصر النهضة فأعطى الإنسان الشعور بشخصيته المستقلة وبحقيقته الوحيدة وبوجوده كفرد تركت الحياة المستوى الإلهي إلى مستوى البشر. ونزل مفهومها من السماء إلى الأرض، وبدأت بذلك قصة التمرد الغربي التي قد أستطيع أن أقسمها إلى مراحل أربع:

اتجه التمرد أول الأمر اتجاهاً واقعياً طبيعياً على يد كوبرنيك وغاليله ونيوتن. ونصب الإنسان نفسه حكماً لا يؤمن إلا بما يراه ولا يقنع إلاّ إذا وضع يده في الجرح، على طريقة القديس توما: وكان الناس يسلمون بالذي جاء به الكتاب المقدس وبالذي نقل عن أرسطو وإذا بالفكر في كل مكان يثور على هذين الأقنومين الأقدسين وإذا بالناس، لا المفكرين فقط، ولكن العامة أيضاً يندفعون في حركات كلها تمرد وثورة ونزوع إلى الجديد: في ثورة لوثر والحركة الإنسانية والاتجاه الطبيعي في العلم!

ولا يكاد هذا الاتجاه يستقر ويبدأ بوضع الحدود والقيود حتى تثور بالناس النزعة "الفردية" فيتجه الناس الاتجاه الثاني: الاتجاه العقلي ويؤمنون بالعقل؛ لا العقل المجرد ولكن عقل الفرد وفكره. وضع ديكارت أول أحجار هذا الاتجاه ووصل به (كانت) إلى الأوج بين ديكارت وكانت تجد جموعاً من المفكرين بينهم فولتير وبوالو وبركلي وروبسبير والموسوعيين وما منهم إلا من أدى الضريبة وقدم فروض العبادة لهذا السيد الجديد المطاع: العقل!

ثم يطلع القرن التاسع عشر فتلبس الفردية ثوباً مثيراً مبهرج اللون تثور به على المنطق والقانون: هو الاتجاه الإبداعي العاطفي ويشغل الناس هذا الاتجاه الفضفاض الذي لا حدود له من هيغل إلى بيرون ومن نيتشه إلى شوبنهاور وغوته وستاندال.. وتوجد بهذا الشكل مذاهب إبداعية بقدر ما في الناس من إبداعيين!! ويتفرع من هذه المذاهب ما يشاء الهوى أن يتفرع، من رمزية وتكعيبية وسريالية..

وبالرغم من هذا فإن حضارة اليوم تتمرد حتى على هذه الاتجاهات جميعاً. والمذاهب الشخصية هي التي تسود الآن. ففي الفلسفة تجد الوجودية في الأخلاق النفعية وفي الفن الإحساس الشخصي ومافاليرى وسارتر ومورياك وشو سوى نماذج لهذا الاتجاه..

أترى هذه الحضارة ستستقر بعد هذا وتستكين إلى هذا المجال الواسع؟ ليس في نيتها ـ على ما يظهر ـ أو لعله ليس في مقدورها المترامي كما أعتقد، خلق مبدأ هو أبو المبادئ، ونصب قيمة تجعلها خالدة أبدية، كما فعلت حضارات الشرق. إننا في هذه السنوات المعدودة الماضية رأينا اندثار المواضعات والتقاليد وهوى الأسماء المشهورة إلى الحضيض

وتفكك القوانين المقدسة. شهدنا تدهور "المؤسسات والأكاديميات والمدرسة" تلك الأقاليم التي كان يدعوها بول بورجه باحترام "أعمدة الحضارة" تأكدنا خطل القوانين العلمية وفشل المثل الأخلاقية وضلال القيم الفكرية...

ماض مجيد برمته أظلم وغرق كأنه مركب هرم كل الهرم ثقيل كل الثقل بحمولته من الوسائل والاتجاهات والمبادئ والأشكال العتيقة.. لقد زرعنا نصف القرن الماضي، بصورة خاصة، خرائب وأنقاضاً واجتحنا فيه تقاليد شتى واخترمنا فيه مبادئ ما كانت لتخترم، ودفنا فيه آثاراً عيوناً زعم الزاعمون أنها خالدة على الدهر فإذا بها تموت قبل أصحابها..

كل هذا والتمرد مستمر كاسح والنزعات الشخصية تطغى والإسفاف الذي يدعونه أصالة هو المنتصر! ويهزل الإنتاج حتى يظهر الموسيقى سترافنسكي فيهرب من "التجارب المطلق" من (الهارموني) إلى التنافر (الديزارموني) ويتقرب من الجاز الأميركي فيرفعه الناس إلى مصاف سيبليوس سيد العصر الذي عبر في سمفونياته عن وحدة المطلق ووضع بكل نغم من أنغامه صرخة إنسانية، كل حواشيها فرح!

وكذلك يبدأ الرسام بيكاسو بالبحث عن التجريد، وعن المطلق فيصفق الناس له حتى ينتهي إلى ما انتهى إليه اليوم من بهلوانيات غريبة: يمسك بمصباح كهربائي فيرسم بضوئه بعض الخواطر على الجدار وتلتقط آلات التصوير هذه الصور لتعرض تحفاً فنية على الناس ويضعه النقاد في مصاف غوغان وفان كوخ ذلك الذي ذهب إلى تاهيتي مفتشاً عن اللون وعن الحرارة في اللون وعن الشكل وعن المطلق!

وأخيراً وليس آخراً يرد الفيلسوف (فرويد) الإنسان حشرة ويجعله عبداً للغريزة ولعقدة (أوديب) فيفسح له الناس مكاناً في سدة برغسون ورسل وينادي مارينتي بالمستقبلية (فوتوريزم) وباحتقار كل ماض وكل عبقرية خالية وبإنكار العائلة والدين فلا يجد من يدافعه. وينادي السرياليون (ما فوق الواقعيين) مع أندره بروتون بمثل ذلك فيجدون في كل صقع نصيراً..

ماذا أقول؟ إني أعتقد أن القيم قد ضاعت مع التمرد. وكثيرون أولئك الذين ساقتهم أهواء "الفردية" الجاهلة إلى مناصب القيادة الفكرية والفنية فأضحت أسماؤهم في الخالدين.

وبالرغم من أني هنا أقف بين القمم الكبرى للإنسانية فأقدر وأقضي وأرفع وأضع إلا أني أعود إلى نفسي فأتساءل: من منهم سيحكم المستقبل؟ أم تراهم على مسافة واحدة من الإبداع والسخف؟

يقول برنارد شو: إن تاريخ هذا القرن سيحوي أسماء تشرشل وهتلر وستالين وغيرهم ولكنه سيخلد اسماً واحداً فقط هو سيبليوس. أترانا نستطيع أن نضيف الآخرين أيضاً؟ أم أن هؤلاء وهؤلاء على السواء ليسوا أكثر من حصيات صغيرة سيطمرها السيل مع تمرد الأجيال الصاعدة، وليسوا أكثر من أزهار عارضة سيطوي عطرها الأفق المقبل؟

إن الكثيرين ـ وأنا منهم ـ يرون أن الحضارة الغربية قد وصلت إلى الفصل الأخير الذي سيحكم من خلاله عليها.. بل أن بعضهم ليؤكد أنه قد حكم عليها منذ ألقيت أول قنبلة ذرية على هيروشيما! وليس بالإمكان بعد تصحيح الموقف ولا تغيير المصير!

وتمر في خاطري هنا درامة (ويزكلو) لجان بول سارتر. لقد مثل هذا الوجودي الكبير، الجحيم على أنه المكان الذي يستحيل فيه الرجوع إلى الوراء. وأرى أن قدر الإنسان الحديث يكاد يكون مماثلاً لشخصيات تلك الدرامة، أنّا

ليستحيل علينا أن نطوي السبيل القهقرى اليوم إلى الوراء ويستحيل أن ننسى ما قدمه العلم والفن والفكر لنا حتى اليوم.. كل خطوة نخطوها إنما هي خطوة نهائية دفعنا ثمنها وعلينا وزرها. قد يكون عالمنا قاسياً صلفاً تستعبده الآلة ويتخمه السكان العطاش إلى حياة أسعد وأكثر سلطاناً، ويقلقه التوق الملحاح إلى الجديد وإلى التمرد.. ولكن سواء قبلنا هذا أم رفضناه فهذا العالم عالمنا نحن لا مناص من العيش فيه. على أني أتساءل إذا كان رجل القرن العشرين متمرداً على كل شيء، هداماً لكل قيمة، كإله الهنود الكبير (شيوا) الذي يرقص ويسحق تحت أقدامه في نشوة الرقص، الأجيال والكائنات والبشر، فيا ليت شعري ما الذي سيبقى من هذه الحضارة بعد أن تذبح بيدها كل قيمها؟ وما الذي ستقدمه للإنسانية بعد أن يرقص شيوا رقصته الأخيرة؟

حضارة الجسد

كلما رأيت طائرة تخطف الأجواء أو أصمَّ أذني صخب معمل؛ كلما قرأت عن كشف علمي حديث أو وفر العلم حاجة من حاجات البشر هاجم خاطري ـ برغمي ـ هذا السؤال المفترس: إنا نعيش في حضارة العلم المادي، في حضارة الجسد. فهل نجح العلم؟ هل نجح؟

ليس هذا السؤال كسؤال الحصاد نفسه وهو يمسح جبينه أمام بيدره: هل كان إنتاجي يعدل تعبي؟ ولا هو كسؤال المهندس الذي يتأمل بناءه ويهمس خاطره: ما أجمل ما بنيت! وإنما هو سؤال من نوع آخر: فيه التشاؤم وفيه التساؤل القلق وفيه البحث على الأمل أيضاً. إنه تساؤل عن الراكض على طريق يرجو أن تقود إلى السعادة ولكنها مجهولة لديه فهو يتقرى الرسوم والصوى ليرى الذي قطع والذي بقى ويرى أكثر من هذا: هل هو على الطريق السوية أم عليه أن يسلك جَدداً آخر؟

ولم يكن هذا السؤال بذي معنى منذ قرن أو نصف قرن لعدة أمور:

فلعله كان من الحمق أولاً أن تذهب الريبة بإنسان مثقف في عصر باستور وداروين وإديسون إلى الحد الذي يتطاول معه على قداسة العلم: فالحقيقة التي تتكشف عنها التجربة الديكارتية والاستقراء الباكوني هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل والقوانين التي يمهرها كهنة المخابر بأسمائهم هي الأسرار العظمى التي طالما ضن بها الكون ثم وجدها العلماء بين المعادلات والقوارير! ولقد بدا للكثيرين أن أبا الهول الذي يحتفظ ـ كما يقولون ـ بسر الكون والحياة لابد منتحر قريباً، كما انتحر غول أو ديب، لأن العلماء لابد سيضعون أيديهم على ذلك السر، اليوم أو غداً... وما أقرب اليوم من غد!

ولم ينتبه العلماء من جهة أخرى إلى الوظيفة الاجتماعية للعلم فأقاموا منه نوعاً من الدين أعلنه كلود برنارد وكرسه بوانكاريه في صفحة مشهورة من نهاية كتابه قيمة العلم: فقال إن العلم هدف في ذاته. "العلم للعلم" وأمن العالم على ذلك لأنه لا يمكن أن ينحدر عن العلم إلا الخير ما دام هدفه هو "الحق" والخير والحق أقنومان من أقانيم الإنسان الجميلة!

وعمت أصحاب الحضارة الغربية، من جهة ثالثة، موجة من التفاؤل بنتيجة موجة الرفاه المادي التي راقت تطبيقات العلم فتفتحت لذوى النبوءات الآفاق الشعرية وتسابقت الأخيلة في رسم العجائب العلمية في عالم المستقبل من فريار بيكون إلى ويليام موريس إلى هدسون وإلى كتابات ويلز الأولى... ومن يقرأ ما سطره الناس سنة 1900 عن العصر الجديد المقبل يحسب أن الفردوس الموعود سيهبط في القرن العشرين من السماء إلى الأرض لاحقاً بذرية آدم!

أما الآن فلو أن عصا ساحر نقلت أحد أولئك المتفائلين إلينا ليرى ذلك الفردوس المشتهى أو لو بعث عالم من سدنة "العلم للعلم" ليسمع ما يقوله زملاؤه اليوم عن العلم لاصفرت وجنات الاثنين من الدهشة واليأس. أجل! تقدم العلم خطوات جبارة ووضع بين يدي الإنسان قوة لم يمنحها كائن من قبل ومد سلطانه على الطبيعة مداً أضحت معه مطامع ديكارت العتيقة في حكم الطبيعة مطامع متواضعة وسخيفة... ولكن الأحلام بالمقابل بهتت على أجفان الحالمين والأخيلة البيضاء ذبلت. وهبطت قيمة العلم في الحضارة لتصبح موضوع ريبة وجدل. وسمع الطعن على العلم في حرم العلم نفسه: هذا رئيس المجتمع البريطاني يقول في خطبة الرئاسة: "إنا نلحظ

تغـيراً محسوسـاً في رأي المفكـرين عمـا يسـمى بالتقـدم الميكانيكي فالإعجاب يشوبه النقد والاطمئنان حل محل الشك الذي كاد يصبح ذعراً... وأستميحكم عذراً كأحد الأنصـار القـدامى للميكانيـك إذا أنـا عـبرت عـن بعـض مـا يخالج نفسي من شعور حين زالت غشاوة الخداع عن عيني... علينـا أن نعـترف أن ثمـة نـذير شـؤم مـن وراء الجهـود العلميـة الـتي يبـذلها مـن يريـدون بنيـة طيبـة ودافـع نبيـل جعـل مـوارد الطبيعة ملائمة للإنسان".

وهـذا هارولـد أوري، مكتشـف الهيـدروجين الثقيـل وحامل جائزة نوبل وأحد محققي القنبلة الذرية لا يتردد في أن يعلن أنه هو نفسه خائف وأن كل من يعرفهم من العلمـاء هـم مثلـه خـائفون! ويجـرأ أحـد العلمـاء في مجمـع تقـدم العلـوم البريطـاني علـى اقـتراح إغـلاق المعامـل الطبيعيـة والكيماويـة مـدة عشـرة أعـوام لأن مجمـوع السـعادة الإنسـانية، بـدون الدوائر العلمية لن تنقص شيئاً!!

ولم تقـف الهجمـة عنـد حـدود العلـم بـل تعـدتها لتصـبح هجمة على الفكـر الحـديث كلـه وإذا قـال روسـو قـديماً إن الإنسان المفكر حيوان سافل فإن هـذه الفكـرة قـد أضـحت اليوم شائعة على الألسن وما فلسفة سرربل وبرغسون وسارتر

في الغرب وأفكار غاندي وطاغور في الشرق سوى تعبير عن الدعوة ضد الفكر ودعوة إلى الغريزة وإلى الحدس وإلى اللامعقول والروح!

فما سر هذا التقارب على "ضم" القرون الثلاثة الأخيرة وعماد هذه الحضارة؟

وماذا يأخذون عليه ليعفروه بعد التقديس بالرغام؟ لقد فقد العلم قيمته المطلقة! فقدها كطريقة عقلية أولاً وكموقف أخلاقي ثانياً وكإنتاج إنساني مفيد أخيراً!

أجل! لقد فشل العلم أولاً كطريقة عقلية: فلقد ضربت من حوله الحدود منذ وجد وصاغ، غاليله وديكارت وبيكون قيوده الذهبية: فجعلوا مجاله الطبيعة وحدها واستبعدوا غيرها فلم يصل في مجال النفس والمجتمع والتاريخ إلى شيء جدي بل أن العلم حتى في الأبحاث الطبيعية قد هرب من مواجهة المشكلة فلم يبحث في ماهية الأشياء والمادة واكتفى بدراسة علائقها الرياضية المنبسطة وهذا ما يدعونه بالمذهب الوصفي. ولكن ليس في الناس اليوم من يدعى أنه يكفي للخلاص من المشكلة أن نغمض العين عنها! وليس في الناس اليوم من يستطيع أن يلغي ضوء النهار لأنه شاء أن يطبق جفنيه دونه!

ثم إن العلم يستعمل في غزو الطبيعة وسائل لا يعرف شيئاً من ميكانيكيتها وطريقة عملها: فكيف يتم الكشف العلمي؟ لسنا ندري من ذلك شيئاً ولقد نعزوه للذكاء البشري ترى ألسنا نزيده بذلك غموضاً؟ ثم ما حجتنا في التدليل على صحة الإبداع العلمي؟ الاستقراء والتجربة؟ لكن ألسنا نحن الذين نقسم الطبيعة والواقع في كل منهما وفقاً لعقلنا الخاص؟ ألسنا نفترض بين الأشياء حدوداً وحواجز تسهل علينا تناولها ثم نمزج بينها على ما نحب نحن أن يكون؟ أوليس تدخلنا هذا بكاف ليفقد تلك الأشياء كيانها الصحيح؟ ثم إنا نعالج الطبيعة وظواهرها المتباينة بمصطلحات تجريدية خالصة كاصطلاح الزمان والمكان والوحدة الجوهرية والوزن النوعي فمن أين جئنا بتلك المصطلحات إن لم يكن عن طريق العلم نفسه؟ وكيف نطبقها على الطبيعة وهي كل حي ووحدة نامية ولا تخامرنا الريبة بأن الكثير من خصائصها تفقد بهذا التقسيم الاصطناعي؟

وأخيراً إن معظم النظريات والقوانين التي طالما أشاد العلماء بصحتها المطلقة ونهايتها قد انهارت في الفترة الأخيرة: فقد كنا نفهم الكون من خلال نظريات كوبرنيك ونيوتن

الرياضية المبسطة وقد تبين خطل ذلك المفهوم حين ظهر من بين المعادلات المعقدة عالم أينشتاين (ولو أنه لم يفهم بعد) واندحرت الميكانيكا المتصلة في عالم البحث لتحل محلها ميكانيكا الكم (ولو أنها ما تزال كالأحجية) وتصدعت أسس الرياضيات أيضاً. وتبين إلي هذا وذاك أن ما صيغ ورتب من قوانين "موضوعية" في القرون الماضية ليس جديداً بتلك القدسية المطلقة التي له: فلا قياساتها صحيحة ولا مبدأ الحتمية (أو التقيد) بضروري فيها. ولقد تتحقق في العالم العادي ولكنها خاطئة في عالم الذرة الأصغر. ومن هنا جاءت نظريات دوهم أدوار لوروا لتقول بأن العلوم لا توصلنا إلى معرفة الواقع نفسه ولا تقدم لنا صورة صادقة عنه وإنما هي تصوره عن بعد وفقاً لاهتمام النشاط الإنساني بحيث تستبدل بتشابكه الحقيقي رموزاً كمية تكفي لأن يتنبأ المرء ولكن بصورة وسطية مجملة لا أكثر. أليست هذه الثغرات في بناء العلم كافية لتهديم مفهومه الوضعي والتقليدي ولإشاعة الريبة فيه كطريقة عقلية للمعرفة؟

والعلم بعد قد فشل ثانياً كموقف أخلاقي: فذلك الوفاق العتيق الذي كان يظن أنه وفاق لا انفصام له بين العلم والخير، بين العلم والتجرد المثالي قد اهترأ عراه ولم

يعد بحث العلم عن الحقيقة كافياً لحشره في زمرة الأعمال الفاضلة. ذلك أن مبدأ "العلم للعلم" قاد الحضارة الحديثة إلى ألوان قاسية من الشقاء والبؤس فهذه الحروب الداهمة وما يرافقها من فتك عالمي متزايد القوة. وهذه الأزمات الاقتصادية التي تنتاب باستمرار كوكبنا التائه وهذا الخوف الدائم الذي يرهق على السواء الصيني في مزرعته والأميركي في مصنعه والإفريقي وهو يرقص لصنمه. وهذه العبودية للآلة التي تزحف كالوباء إلى كل صقع.. هذه الشرور جميعاً إن لم تكن نتيجة تقدم العلم ذاته فمما لا شك فيه أنها لم تأخذ شكلها المفترس هذا إلا بسبب العلم. لقد نعت غاندي هذا العصر العلمي بأنه "العصر الأسود" وليس ذلك بغريب إذا كان اينشتاين أعظم عالم معاصر ينعت الأعمال العلمية بأنها "أعمال جديرة باللعنات" ويضيف "إن العلم لم يستعمل حتى اليوم إلا في خلق العبيد، ففي زمن الحرب يستخدم في تسميمنا وتشويهنا وفي زمن السلم يجعل حياتنا قلقة منهكة مرهقة. كنا ننتظر أن يستعين البشر بالعلم لينالوا أكبر حظ من الحرية ولكن العلوم صيرتهم بدلاً من ذلك عبيداً..." ويقول الأستاذ باييه عن مستقبل العلم "...سنشهد إزهاق الأرواح بين الشيوخ والنساء والأطفال

وستمحق الحياة في المدن والقرى حتى يستطيع الناس أن يقولوا في العلم ما قيل في الفارس الذي يتحدث عنه سفر الرؤيا: إن اسمه هو الموت!".

وقد يقال إن العلم شيء وتطبيقه شيء آخر وهذه المآسي التي تلصق بالعلم ليست من نتاج يديه ولكنها ثمرة تطبيقه من قبل إنسانية جشعة! إن العلم يقدم والإنسان هو الذي يستخدم. والعلم يقرر لكنه لا يحكم، يقدم الوسائل ويفتح الأبواب ولكنه لا يحدد المثل ولا دخل له في تعيين الاتجاه وما أشبهه بمارد جبار أسير عند عاهل طاغية يعمل ما يوحي إليه به... ولكن أليس فشل العلم أخلاقياً كامناً في موقفه هذا نفسه؟ العلم وظيفة اجتماعية قبل كل شيء فهو يحدد المجتمع كما أن المجتمع بدوره يحدده وإذا لم يأبه العلم للأخلاق فهذا هو بالذات ما يجعله ضد الأخلاق إذ لا يمكن أبداً الفصل بين العلم وتطبيقاته العملية فليس هناك علم نظري وعلم عملي ولكن هناك كما قال باستور العلم وتطبيقاته. ومهما بعدت المبتكرات العلمية النظرية عن التطبيق الواقعي فإنها غالباً ما تنتهي إليه. هل هناك مثلاً كشف أكثر نظرية من كشف بروغلي سنة 1924 عن أن المادة ذات طبيعة تموجية كالضوء؟ إن هذا الكشف قد

أدى بعد سنوات معدودة إلى عمل المكروسكوب الإلكتروني! ومن ذا كان يظن أن معادلات اينشتاين الرياضية سنة 1905 ومذكرة نيل بوهر سنة 1939 حول النوبات الثقيلة ستنتهي سنة 1945 إلى سحق هيروشيما من الوجود بالقنبلة الذرية؟ إن "هذه الآلة العمياء" التي يدعونها العلم لا يمكن بحال أن تكون بريئة من مسؤولية هذا الواقع البشع، واقع الطين الذي تغوص فيه الإنسانية. وكلمة رابليه وباكون القديمة: "علم بدون ضمير ليس غير تحطيم للروح" يمكن أن نوسعها بأنه تحطيم للعالم أيضاً. إن ثلاثة قرون من التقدم العلمي المسكر أكدت لنا أننا أضحينا أرقى من أسلافنا على هذه الكرة ولكن الخلط بين تقدم العلم وتقدم الإنسانية خطأ شنيع فلقد يكفي عدة علماء ليهبوا الإنسانية قوة رهيبة ولكن لا يكفي عدة عقلاء ليجعلوها جديرة باستعمالها. وما أكثر الذين أشاروا مع برغسون وأوري وروستان إلى أن العلم قد جعل منا آلهة قبل أن نستحق أن تكون بشراً!!

وأخيراً فقد فشل العلم كإنتاج إنساني مفيد. وقد اتهم هنا بالمغالاة لاسيما إذا نظر كل منكم إلى المذياع الذي بجانبه وإلى النور الذي يملأ غرفته وتذكر الهاتف والطائرة

والحليب المجفف والمرض الذي شفى منه. ولكني أعتقد أن ثمة أهدافاً إنسانية للعلم أعظم شأناً من هذا الترف هي منع الأضرار عن الإنسان ورفع حياته إلى مستوى أكمل وأسمى. ولقد كان العالم وما يزال يشكو من المرض والموت ومن الجوع ومن العبودية ومن الحرب ومن الجهل كما أنه يتوق إلى معرفة نفسه ومعرفة الله ويريد أن يصل إلى الطريقة المثلى لتنظيم الجماعة الإنسانية... فهل حقق العلم شيئاً من ذلك؟ لا سبب للمرض سوى سوء التغذية والسكن وليس ثمة ما يمنع أن يجد كل إنسان كفايته من الطعام ومأوى مريحاً يركن إليه ولكن البشر ما يزال ابتدائياً في تأمين حاجاته الفيزيولوجية هذه ثم لا مبرر للحرب سوى الوحشية الكامنة وراء جلودنا الناعمة ولا سبب للعبودية الآلية سوى أنظمتنا الاقتصادية السيئة ومع هذا فما تنفك الحرب هي الحالة المعتادة والسلم هو الهدنة بين الحربين وما نزال بعيدين عن ابتكار آلات تزيل التعب والكدح ولا توجدهما وعن إيجاد نظم تملأ الحياة الإنسانية متعة بدل أن تخنقها بالمصائب.

لا! لم ينجح العلم ولكني لا أشك في أنه سيظل يسير في طريقه التي اختطها ولعله سيسير طويلاً حتى تظهر عبقريات تعدل غاليله ونيوتن وديكارت فتفتح اتجاهاً

جديداً للمعرفة. أما الرجوع إلى الوراء فلا أؤمن به ولا أشارك فوستر وهاكسلي في الادعاء أن الحياة الإنسانية الأولى أكثر رفاهاً، ولست من دعاة نسف المدنية الحديثة والانصراف إلى التأمل الصوفي على الطريقة الهندية! بل أؤمن بالعكس أن الإنسان لن يتخلى عن ثمرات هذه الحضارة مهما لقى فيها من بؤس، كمدمن الخمر يعرف أنها تهلكه ويرى جسمه يذبل عضواً فعضواً ويظل يأخذ منها قسطه اليومي. ولكني أتساءل فقط: ترى لو قيض للإنسانية أن تعيش حياتها من جديد في عالم جديد فهل تستفيد من تجربتها هذه؟

كانت آخر قطعة كتبها الأديب الإيطالي بيراندیلو هي: "آدم وحواء" تصور فيها الإنسانية وقد انهارت ومحت كوارث الجنس البشري جميعاً سوى رجل وامرأة! وقد أخذ آدم الثاني وزميلته وريثة حواء في بناء العالم من جديد ولكنهما يتميزان عن سلفيهما الأكرمين بأن ذكرى المدنية التي انهارت كانت ما تزال لاصقة بذهنيهما وقلبيهما. فهل يستطيعان تجنب الأخطاء التي وقع فيها أسلافهما؟ هل يستطيعان السمو بحضارة الجسد؟

هل يستطيعان؟

حضارة الغد

الغد، ذلك الباب المرصود، الحبيس بين شفتي عرافة، ما كنت لأحاول اقتحام سره لولا أني ككل الناس منذ وجد الناس، مولع بالغيب أتبعه وأعلم أني لا أدركه وأحاول اكتناهه واستباقه وأنا موقن أني سأنتظره ليأتي على ميعاد وقدر لا يتقدم عنه ولا يتأخر..

والتطلع إلى الغد ظاهرة تنتشر أيام الأزمات، أزمات الروح وأزمات المادة على السواء، ومن مثل هذه الأزمات خرجت مثلاً وثبتت في الأذهان منذ عهد مصر وبابل إلى اليوم أسطورة (المهدي) المنتظر الذي سيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً.. ومن مثلها ظهرت أحلام الفلاسفة الطوباوية أمثال جمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي الفاضلة ومدينة إيكارية لكافيه وتجربة جماعة Oneida منذ قرن في أمريكا.

غير أني في الواقع لا أتطلع إلى الغد ليأسي من هذه الحضارة القائمة اليوم ولا لضيقي بها وبقيمها، فأنا أعلم أن الإنسان منذ كان، دائم الشكوى من واقعه، دائم التطلع والتوق إلى مستقبل أزهى، وأن أهل كل جيل يعتقدون أنهم إنما وجدوا في أسوأ الظروف وفي عهد أدبار الدنيا وتسكعها. وقديماً قال شيخ المتنبئين أبو الطيب:

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على هرم

ثم أني لست أنتظر من حضارة الغد المن والسلوى ولعله من المسكنة والفقر الفكري أن نتصور المستقبل شيئاً مغايراً كل المغايرة للماضي والحاضر. ولهذا فلن أصف الغد من خلال ما أريد له أن يكون: لوحة ثورية رائعة الجنبات فأنا أكاد أوقن أن الثورات ـ كما قال المأسوف على شيخوخته وسخره برناردشو ـ "لم تخفف قط من عبء الظلم ولكنها نقلته فقط من كاهل إلى كاهل!" ولكني سأحاول أن أستشف من خلال ملامح الحضارة القائمة أمائر الحضارة المقبلة، ومن اتجاهات إنسان اليوم مصائر إنسان الغد.

ولعلي لا أشوه أفق نظري ولا أضيق منه إذا أنا بدأت أتلمس حضارة الغد بالبحث عن إنسان الغد، فأنا لا أرى أي

فـرق بـين الحضـارة وبـين صـانعها الإنسـان لأنهـا هـي صـورة جهده وألمه ومحاولته في انعكاسها على لوحة الزمن؛ ولأن أعمق صفة من صفات الحضارة إنها إنسانية دوماً وإنسانية جداً.

فمن يكن إذن إنسان الغد؟

كثيرون قبلي حاولوا الإجابة على هذا السؤال. جربوا استباق المستقبل، وكثيرون نثروا قواقع المنجمين ليعرفوه أو حسبوه سجيناً بين ورق اللعب، أو ركبوا الخيال الجموح إلى تصوره كما يشتهون. ومن يكون (سوبرمان) نيتشه أو (كيون تسو) الذي وصفه كونفوشيوس أو رجل (ويلز) الخفي إن لم يكن ابن هذه الشطحات الفكرية الحلوة؟

"إن الإصرار على أن يخلق الإنسان من جديد ويخلق خلقاً مختلفاً عما كان، يتكرر في كل جيل وصيحة الإنسان الكامل لم تصدر أول ما صدرت عن نيتشه ولن تقف عند المعنى الذي قصد إليه" على أني لن أركض وراء أحلام المفكرين لا، فإنسان الغد وحضارته وهذه الأحلام تكاد تكون "كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده!" لن أركض وراءها "فصيحة الإنسان الكامل كانت تخمد بسؤال واحد

لا يتغير وهو أي نوع من الأشخاص يراد أن يكون هذا الإنسان الكامل (ما فوق الإنسان) إنك لا تطلب تفاحة كاملة (ما فوق التفاح) ولكن تفاحة تؤكل ولا تطلب جواداً كاملاً (ما فوق الجواد) ولكن جواداً أسرع وأقوى على الجر كذلك لا جدوى أبداً في أن نطلب الإنسان الكامل ولكن يجب أن نبين نوع الإنسان الذي نطلبه" هل نريد أناساً ـ أجساماً من نوع شمشون وهرقل وفينوس ميلو أو أناساً ـ أفكاراً من نوع كالفان وروبسبير والغزالي؟

ولعلنا نكون أقرب إلى الحق إذا نحن تركنا مستوى الإرادة والطلب إلى مستوى الواقع والموجود فإذا كانت بذور اليوم هي أشجار الغد وكانت الأجيال الحاضرة تحضن الأجيال التي ستسمو عليها فإن الاتجاهات الكبرى للإنسان اليوم قد تحمل بينها ملامح الإنسان المقبل وقد تحدد بالتالي أمائر الحضارة المقبلة.

وإنسان اليوم تعصف به من التيارات الكثيرة المتشابكة العميقة ما أحار معه كيف وماذا أختار منها! فهناك الإنسانية العلمية والإنسانية الماركسية وهناك الإنسان النيتشوي والإنسان الديني والإنسان الوجودي والإنسان والإنسان..

فأما الإنسانية العلمية فتدفع بالإنسان إلى ميدان العلم وإلى الانطلاق مع هذه العاصفة التي استبدت بالفكر الإنساني، أي استبداد، منذ قرنين، وجرته إلى النظرة الموضوعية للكون، وإلى النفعية في العمل؛ وأوجدت لديه تلك النزعة المادية الحادة التي تصل أحياناً إلى حد المرض. هذا إلى أن العلم اليوم قد جدد قواعده ومبادئه وحواشيه الفلسفية وكل ما كان يزين به من أفكار وصور.

فأضحت كل علاقات المادة والضوء وعلاقات الهندسي والحركي وأفكار الزمان والمكان ومبادئ التقيد بل والمنطق في ثورة جذرية عنيفة. وقد تفتح لنا مع تفكك الذرة عالم جديد لسنا ندري بعد أهو لفحات الجحيم أم نفحات الخلد؟ إن بول فاليري شاعر هذا العصر في فرنسا كتب قبيل وفاته (فاوست) أخرى غير فاوست غوته الألماني وكانت هذه القطعة تقريباً آخر نظرة ألقاها فاليري على العالم ولكنه صور الإنسان فيها يسبق الشيطان: صور فاوست يسبق مفيستو على أرضه نفسها وينافس مفيستو على سلطته الشيطانية. ومع هذا فإن فاليري كتب ما كتب قبل أن تكتشف القنبلة الذرية وقبل أن يكون في يد هذا المخلوق الذي لا يصل طوله إلى مترين هذه القوى الحبيسة الهائلة!

وتستأثر الماركسية بجانب كبير من تفكير العالم اليوم وأود هنا لو ننسى موقتاً وجهها السياسي! لننظر إليها على أنها اتجاه فكري فحسب، يقول غوركي: "الإنسان أثمن كنز على وجه الأرض" ولكن هذا الكنز لا يبدو في نظر الماركسية أكثر من علاقة اقتصادية فليس ثمة من طبيعة شريرة ولا إنسانية معذبة أو سعيدة فكل ذلك نسبي وإذا لم يكن للإنسان من مفهوم ثابت فلأن العلاقات الاقتصادية وطرق الإنتاج التي تحدد ذلك المفهوم تتغير والمثل الأعلى الذي ترنو إليه الماركسية في المجتمع الاشتراكي هو إيجاد الانسجام بين قوى الإنسان الاقتصادية والاجتماعية، هذه القوى التي يجعلها سوء التنظيم اليوم تبدو وكأنها بالنسبة للإنسان قوى غريبة عنه تضغط عليه وتنهكه.

ونصل إلى الإنسان النيتشوي ولست أقصد إنسان نيتشه بالذات فإنه إنسان مجرد لا يمكن إدراكه ولعله لا ينفصل عن نيتشه مبدعه نفسه! وإنما أقصد من هذا كل محاولة لإيجاد إنسان أعلى وأكمل يستوى في ذلك المربون الذي يعملون للجيل الصاعد وآباء الكنيسة الذين مثلهم الأعلى أن يصبح كل من على الأرض في مرتبة القديسين ويلتقي عند هذا المفهوم نيتشه وكانت وكونفوشيوس على السواء.

وإنهم ليقولون جميعاً بلسان نيتشه "لنا الغد أو بعد الغد" لأن الحاضر ما كان أبداً لهم!!

وأنتقل إلى الانسان المتدين، القديم، القابع في جلد كل منا والذي يهبنا طمأنينة الروح وسمو النظرة والذي كان أساساً في كل حضارة قامت بكل صقع. وأهم ما فيه أنه لا يواجه الحياة وحده ولكنه يعرف أن الله معه لا فرق في ذلك بين أرقى متحضر يؤمن بالله الواحد وبين زنجي البوشمن الذي يصلي لعشرات الآلهة والأرواح!

وأما الإنسان الوجودي أخيراً فأعمق ما يسحقه ذلك الموقف الشخصي، المفرط في الفردية الذي يقفه من الكون: إذ تتفكك أمامه موضوعية العلم نثارات كالهباء ويذوب جلال العقائد! ويتبدى الوجودي أحياناً وكأنه صورة جديدة للعدمي (النهيليست) الذي عرفته روسيا في أواخر القرن الماضي.

هذه الاتجاهات الكبرى تتبدّى لإنسان اليوم غاوية مغرية، كحوريات الشياطين التي رقصت من حول بوذا وهو في الغاب لتغريه عن نسكه. فهل تستأثر إحداها بإنسان العالم المقبل؟ وأيها سترسم الخطوط الكبرى لحضارة الغد؟

قـد لا تكـون الإنسـانية مقيـدة باتجاهـات الحضـارة القائمة ذلك أن ألف حادث عارض وألفاً من التوابع المتباينة الاتجاهات، كشرارات الأسهم النارية، تتجاذبها. ومن ذاك الذي يستطيع أن يدعي أنه وضع يده على خيوط التاريخ الإنساني جميعها فبين شفتيه سر الغد الأكيد؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أنه لن تظهر في الفجر المقبل صدفة عربيد تغير اتجاه الكون؟ أو شخصية غير مرتقبة تلعب بمقدرات القطيع البشري كما لعب بها نابليون ومعاوية وقيصر وآنيلا؟ هذا إلى أنه ليس من الضروري أن يكون لأفكار العصر الحاضر أثرها الأكيد في المستقبل ولا لأعمالنا مكانها في تقدم البشر والإنسانية.

إن الحياة تبذل من الجهد أكثر بكثير مما يحتاجه استمرارها وتفوقها على نفسها وتطورها المتزايد السمو (إن كان ثمة تطور سام!) ألست ترى إلى الشجرة تنفتح عن آلاف الزهور ليعقد عشرات منها ثمراً فقط وتلقي عشرات الأثمار إلى الأرض لتعود منها بذرة واحدة إلى الأعماق تحفظ النوع؟ أو لست ترى أيضاً إلى السمكة تنثر في السنة ملايين البيوض فلا يبقى منها إلا القليل ولو تفقأت كلها عن سمك لصار البحر في سنين معدودات كتلة جامدة من اللحم الطري! أو لست ترى أيضاً وأيضاً إلينا نحن بني البشر يولد

الملايين منا ويموتون وتدلف الأجيال بعد الأجيال قبل أن يظهر فينا عالم واحد كالحسن بن الهيثم أو باستور وعبقري فرد كالمعري أو نيوتون أو سيبليوس؟ ثم كم من الأفكار ننشئ ثم نهدم ثم ننشئ ونهدم لنحتضن منها جميعاً في النهاية فكرة صغيرة واحدة، كقلب العصفور، نعتبرها ظفراً للإنسانية؟

ملاحظات معدودة فقط أستطيع أن أعدها من ميزات حضارة الغد، معدودة حتى لا نكاد نستبين منها جديداً:

الأولى: إنها ستخضع لقوانين التطور. ستتطور دون شك ولكن كلمة تطور لا تتضمن بالضرورة معنى التقدم والسمو، والناس منذ زمن طويل ودعوا فكرة التقدم الإنساني المستمر وإذا قبل بها أصحاب متاحف التاريخ الطبيعي على أنها حقيقة واقعة في ميدان النبات والحشرات فإن أكثرية الناس اليوم ينكرونها فيما يتعلق بتطور العقل الإنساني ورقيه إنه لم يوجد بعد أي دليل على أن العقل الإنساني قد حقق أي سمو منذ عرفه التاريخ وأنا لا نزال حين نقرأ محاورات أفلاطون نشعر بأنها قد كتبت لتستوعبها عقول فيها من الذكاء ومن حدة الإدراك بقدر ـ بل ربما أكثر ـ مما في عقول طلاب الفلسفة اليوم.

الملاحظة الثانية: إن حضارة الغد ستكون عالمية: تشمل العالم بين قطبيه وقاراته الخمس وتستقي منابعها من حكمة الشرق الأقصى ومن أديان العرب ومن علم الغرب على السواء. ذلك أن ذلك الرعيل من القمم الإنسانية الذين هزوا الخطوط البيانية للتاريخ هزات عنيفة يمدون أيديهم عبر العصور وعبر الحدود بعضهم إلى بعض ويلتقي في نقاط كثيرة وعديدة سقراط مع الفارابي وابن تيمية مع كونفوشيوس وبوذا مع كانت رغم الأبعاد والأبعاد.

الملاحظة الثالثة: إنها ستكون علمية فما نزال نجهله من العالم أكثر بكثير مما نعلم والذين يعلمون الكثير هم وحدهم الذين يستطيعون أن يقدروا كم نجهل ويجهلون. وسيتابع الإنسان سيره دون شك في الطريق التي امتدت من باكون وديكارت إلى بلانك وبيرين وإينشتاين.

بلى إن الإنسانية وصلت مع القوى الذرية إلى مفرق الطرق وإذا أعلن (أورى) صاحب "الماء الثقيل" إنه "خائف وإن كل من حوله من العلماء خائفون" فإن لخوفه ما يبرره.

ذلك أن الجسم والآلة والمادة ـ كما يقول برغسون ـ قد تضخمت تضخماً تحتاج معه إلى تضخم مواز في الروح. إن الآلية تنتظر الصوفية دون شك والإنسانية اتي انحنت بتأثير

المادة إلى الأرض يجب أن تصل إلى الانتصاب ثانية والرنو إلى السماء. ولكن هذه الحاجة لن تمنع العلم من السير في طريقه. وهل أوقف النحيب قط قنبلة عن الهوى إلى الهدف؟

وأخيراً فإن إنسانية الغد مهما انتظمت فإنها لن تتحجر حول مبدأ لا تغادره ولن تستعبدها فكرة لن تحول عنها. إن كلمة نيتشه من أن الإنسان ليس أكثر من معبرين ما كان وما سيكون أو ما يستطيع أن يكون" تظل محافظة على معناها وعلى حقيقتها الخالدة..

***

وبعد فإني أسأل نفسي، أما كان أولى بي لو تركت الكلام عن الغد للغد نفسه؟

في الإنسان

الإنسان والعلم

أشهدتَ مرة فزع العصفور يلقى به في غابة شوك؟ أعرفتَ يوماً هذا القلق الأسود الذي يفاجأ الفكر فإذا به ينقلب كله كهف تساؤل؟ مثل هذا الشعور يخالجني دوماً كلما نظرت في نفسي ونظرت في الناس فوجدتني ووجدتهم ألغازاً وإشارات تعجب واستفهام تدب على الأديم.. لا أكثر من ذلك ولا أقل ولا غير!

ليس في هذا من جديد. فالناس، منذ كان الناس، يعرفون أنهم مخلوقات مغلقة الأسرار. ومنذ ذلك الدهر الأسطوري الذي كان فيه الإنسان لغزاً في عيون البدائيين إلى هذا اليوم الذي أعلنت فيه حقوق الإنسان وأعلن أنه أثمن كنز على الأرض، ما يزال هذا الإنسان مجهول الكنه والمسارب وبين أجهزة الإنسان العضوية وكيانه النفسي وقدرته المبدعة ضاعت مئات الأنظار والنظارات! قرناً بعد قرن.

ولقد فسر الإنسان لنفسه وجوده تفسيرات شتى كان يركن إليها برهة من الزمن ثم تتكسر عنه كقالب الشمع فيتخطاها، نمواً وفلتة فكر.. إلى تفسير جديد! وكان ركض الإنسان لفهم نفسه عبثاً كمطاردة الظل، كمحاولة لمس الأفق.. "والمرأة التي صنعها الإنسان للمعرفة عكست له كل صور الكون إلا صورته!" ولقد فسر الباحثون هذا الفشل الأحمق فردوه إلى عوامل ثلاثة:

أولها: إن قدماء البشر الذين حكمهم قانون الحياة (وهو أن يعيشوا قبل أن يتفلسفوا) توجهت أعينهم إلى تفحص الطبيعة، وأفكارهم إلى اختراع الآلات فلم يكن لهم لا الوقت ولا الحاجة والرغبة في النظر إلى أنفسهم.

ثانيها: أن تركيب عقلنا الآدمي يهوى بطبيعته على ما يظهر تأمل الأشياء المبسطة والنسب الهندسية، والدقة، والوضوح الرياضي وهذا مالا نجده في أنفسنا المعقدة سواء في عضويتها أو كيانها النفسي العميق ولكنا نجده في عالم المادة الجامدة الذي استسلم بسرعة لغزوات العلماء وأعطانا من الأسرار ما در علينا الربح والرفاه.

ثالثها: إن العضوية الحية معقدة التركيب ملتوية الدراسة. وتلك اللمحات الدافعة من الشعور واللاشعور في

أعماقها أمور ضبابية تتأبى على القياس والبساطة. ومن هذه الفرج والثقوب أفلت الإنسان وفر من ميدان المعرفة الإنسانية.

وآخر محاولة قام بها الإنسان في هذا السبيل، تلك النهضة الفكرية التي ظهرت في أوروبا الغربية منذ خمسة قرون وكان من نتائجها ظهور العلم الحديث وطرائق العلم الحديث من استقراء وتجربة.. وحسب للناس إذ ذاك إن الوجود قد ألقى بأسراره وأخباره، ما دام قد ألقى إلينا بمعرفة ما يقاس ويوزن ويدخل في مخبر التجربة. وانصب الفكر على الطبيعة أولاً وعلى الإنسان ــ المادة، على الإنسان الجسد، وأخذ يحدد بالأحرف الرياضية الصماء علاقة بعضه ببعض. وحتى الأمس القريب كان الأمل بانتحار أبي الهول، الذي يحتفظ بأسرار الدهور كما يقولون، أملاً يداعب الكثيرين من العلماء.. وقد ظهر للعلم رسل وحواريون من أمثال بوانكاريه في القرن الماضي شعارهم (العلم للعلم) فما بقيت جبهة إلا وانحنت للدين الجديد. واستطاعت الحقيقة العلمية أن تشتري نفوس الكثيرين من العلماء بنفس الثمن الذي اشترى به الشيطان مفيستو روح الدكتور فاوست عند غوته!! ولعله لم يبتكر الإنسان شيئاً ــ سوى الدين ــ أكثر إغراء من نداء العلم

التجريبي لأنه قائم على الثقة من المعرفة اللامتناهية، وعلى الاستثمار العقلي للكون وعلى إيمان لا حد له بالتقدم البشري وبالسيطرة على المادة. وفي ذلك دون شك نشوة مقدسة ونوع جديد من الدين: الإنسان فيه أشبه بآلهة الأساطير، سيد إبداعه! ينفذ حتى أعماق تكون المادة ويحرر تلك الفعالية الخرافية الراقدة في قلبها! إنه جدير أن يثير على ظهر الكوكب الأرضي هزات وانقلابات هائلة لاحد لها. أليس في هذا ما يفتن أكثر الأفكار وضعية؟ وإذا كتب فاليري قبيل وفاته (فاوست) أخرى جعل فيها فاوست يسبق الشيطان مفيستو ويغلبه في أرضه.. أفما كان يعني يا ترى العلم الحديث؟

ولكن أين وصل العلماء بين مخابرهم ومباضعهم وعدساتهم المرهفة في معرفة الإنسان؟

إن قشعريرة الخجل لتقفز إلى شفاهنا ونحن نذكر أنهم لم يجدوا فيه أكثر من حيوان مؤهل للتقدم. وداروين في هذا زميل فرويد وماركس قريب كل القرب من نيتشه!

لقد تكالبت فنون شتى من التحليل العلمي، على الإنسان فبينما وضعه التاريخ الطبيعي في مكانه من السلسلة الحيوانية، مدد البولوجون جثته تحت المبضع

والمجهـر، وأحصـى عليـه المؤرخـون والاجتمـاعيون أنفـاس الـزمن، وحـاول علمـاء الـنفس أن يقيسـوا بـالمتر والسـانتيم نفسـه! والأطبـاء والمربـون والاقتصـاديون.. كـل توجـه إلى الإنسان بآلته وميزانه واستخرج منه الصورة التي يهوى حتى أضحى كل واحد منا "أشبه بموكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!"

وفي السنوات العشرين الأخيرة فقط بدأ العلماء والناس على السواء يدركون ضلال الطريق: فما حسبوا أنه الإنسان لم يكـن غـير السـطوح والمـادة الميتـة واللمحـات الشـعرية... وطريقـة العلـم التجـريبي وأسسـها البعيـدة كانـت غلطـة فكريـة كـبرى مـن البنـاة الأوائـل والنتـائج الاجتماعيـة والخلقية التي يزرعها التقدم العلمي الحر في الأرض أخطر من أن تتقبلها النفوس بالرقص أو بعدم المبالاة! أمس فقط بدأت أقلام، لها بصائر الأنبياء، تنذر القافلة السادرة وتفقأ أمامهـا النجـوم! وبـدأ النـاس يبحثـون عـن طريـق جديـد، للمعرفة، وراء العلم الحديث! فالعالم اليوم العالم كله، قلق، وتطلع، وأعين في الأفق!.

لا! ما أعلن نهائياً فشل العلم ولا ألقيت مخابره وطرائقه إلى لهب الشيطان. ولكن عهداً جديداً من المعرفة يبرعم في

النفوس الآن. وينتظر ساحراً عملاقاً من أنداد كوبرينك يعلن الثورة أو نبياً يحمل عصا موسى فيضرب بعصاه البحر لترتسم الطريق على الجلد!

أأستطيع أن أصف الخطوط الكبرى لهذا العمل العلمي الجديد؟ لا أيضاً! كبرت دعوى يدعيها مدع بعد! على أنّا قد نستطيع تعداد النواقص الكبرى في العلم العتيق، علم القرون الأربعة الأخيرة فإنها هي مصباح ديوجين في يد الرواد الجدد.

أول هذه النواقص إن الإنسان لم يدخل ضمن دائرة العلم بعد! بلى إنا نملك كنزاً وركاماً عريضاً من ملاحظات العلماء والفلاسفة الشعراء حوله ولكن الإنسان بقي الكهف المسحور الذي لا تنفتح مغاليقه لساحر، ولقد عاد كل رعيل منه بشيء ولكن أحداً لم يعد منه بكل شيء!

ولقد درس الإنسان أيضاً ولكن مادة ميتة: درس أخلاطاً من الخلايا والعصارات الغذائية والنسج، وعضوية تستهلك السلع لتنمو وتعمل على إنتاج السلع من جديد، وكائناً حياً، يحاول الأنبياء والمعلمون وعلماء الصحة أن يدفعوا به إلى السمو مع الزمن ولكنه ما درس شاعراً، أو بطلاً أو قديساً، ما درس كمبدع قيم أو ثائر جموح!

يقول نيتشه: "في الإنسان المادة والجزء والفيض والطين والوحل والجنون والسديم ولكن فيه أيضاً المبدع، والنحات وصلادة المطرقة والتأمل الإلهي لليوم السابع من أيام التكوين!!"

ولقد درس الإنسان من جهة أخرى ولكن أجزاء مفرقة ابتدعتها وسائلنا العلمية المبسطة. آمن الناس بنصيحة ديكارت الذهبية في تجزئة الصعوبة للسيطرة عليها ولكنهم ما عرفوا أنها ذليلة مسكينة على باب العالم العضوي أو النفسي إنها تصبح هناك ضلالة سوداء.

وإذا لم نفهم الإنسان بعد فلأنا لم نتناوله ككل، كوحدة كاملة. وإلا فكيف نفسر انتظام الخلايا في جماعة من تلقاء نفسها مثلاً؟

وكيف نحدّد العلاقة بين الشعور وخلايا الدماغ؟ وكيف تحرك الإرادة عضلات اليد والرجل؟

ولقد درس الناس من جهة ثالثة ولكن ما نجهل منه أكثر مما نعلم، أكثر بكثير.. فما هو الفكر وماهية الشعور؟ وكيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون الخلية الحية؟ وكيف تحمل البويضة كل الخصائص الوراثية من كائن إلى آخر؟

وإنا لا نعرف شيئاً بعد عن كيفية ازدياد الحس الأدبي مثلاً وعن مركب الجرأة في الإنسان؟ ولا شك أن عوالم فيزيولوجية وعقلية معينة تقرر السعادة والتعاسة ولكن هل عرفنا شيئاً من هذه العوامل؟ والحس الأخلاقي هل حددنا لونه؟ والطعام هل بينا علاقته بالإنتاج الفكري؟

ثاني نواقص العلم العتيق إنه فشل كمعرفة عقلية، فلا هو السبيل الوحيد للمعرفة ولا حقائقه بالحقائق النهائية المعصومة!

منذ نصف قرن لم يكن أحد يجرأ على رشق هيكل العلم بزنبقة. أما اليوم فليس منا من لا يشارك ألدوس هكسلي سخره العميق المر، في قصة (الكلأ اليابس المضحك) من العالم (شيرو وتر)، هذه الآلة العلمية الذي انتهى به استغراقه في البحث إلى عدم المبالاة بجميع المعارف الرفيعة الأخرى تقريباً فليس في حياته متسع للفن أو للدين أو للحب!. لقد خفت النور الذي بهر الناس في العلم الوضعي التجريبي وبدأت قيم أخرى تبرز من الظلام..

وبجانب هذا فقد اضطربت كل الأسس الكلاسيكية للعلم، اختلت حتى الصميم، حتى النخاع الشوكي، بتقدم المعرفة المدهش. لقد غيرت الفيزياء مثلاً

أسسها ومبادئها ومحيطها الفلسفي وكل زينتها من أفكار وصور قوانين.. علاقات المادة بالضوء، علاقات الهندسي بالدينامي، مفاهيم الزمان والمكان والمادة وقانون التقيد...

حتى المنطق نفسه، كل ذلك الآن في ثورة. لقد انطلق نطاق معرفتهم في اللانهايات الكبرى وفي اللانهايات الصغرى بشكل بدت معه طرقنا في التفكير وإطاراتنا في المراجع محلية جداً وضيقة لدرجة السخف.. بدت كما هي؛ مفاهيم تقريبية على المقياس الإنساني، الوسط بين النهايتين. إن ثورة كوبرنيكية قلبت من الأعماق وسائل العالم وطرق فهمه للعلم. ويكفي أن نذكر فقط نظرية (النسبية) ونظرية (الكوانتا) في الفيزياء الحديثة وتفجير قوى الذرة. وما نقضته من قوانين العلم لنعذر مفكراً كالإسباني (أورتيغا إي كاسيه) حين ينفض يده من المعرفة العلمية، "هذه الربة الهادية التي كان عليها أن تقود النوع الإنساني إلى الفردوس الموعود"!

وأخيراً **فثالث نواقص العلم القديم** أنه لا يمكن أن يبني وحده المجتمع الإنساني المقبل ولا يضمن النتائج الاجتماعية والأخلاقية التي تنثرها مبتكراته في كل ركن من كرة الطين التي يدرج عليها البشر.

لقد سمح لنا الدوس هكسلي في قصته (العالم الطريف) أن نرى مدينة الطوبي العلمية حقيقة واقعة.. ولعلها لذلك كانت نبوءة مريعة. حافلة بما يملأ الجوانح بالذعر:

لقد انتهى العالم فيها إلى الوحدة وها هو ذا بين (مصطفى موند) و(فورد) ينظمانه ويقيمان مبادئه على أساسين توأمين: الإنتاج على نطاق واسع والحرية الجنسية! ولقد ارتفع العلم بالصحة الإنسانية فيه إلى حد الكمال وجعل علم النفس (على مذهب بافلوف السلوكي) تكيف كل إنسان فيه مع مجتمعه أمراً ميسوراً وساعات العمل معتدلة والمباهج شتى وألوان...

وقد طرد الانقباض من العالم بفعل العقار المبتكر (سوما).. وأما الكتب والطبيعة فبغيضة إلى النفوس حتى ليعجب رجال ذلك العالم الطريف كل العجب من ذلك الإنسان القديم المتوحش الذي كان يعجب بشكسبير ويقدس الأنبياء؟.. هذا النحو الساخر من الخيال العلمي يسمح لنا أن نرى عبر الأفق المقبل مفاهيم العلم القديم في نهاياتها وتطبيقاتها الأخيرة!

ومـن ناحيـة أخـرى نجـد أن تفجـير القنبلـة الذريـة ثـم الهيدروجينية قد فجر في قلوب الناس حتى العلمـاء أنفسـهم، ينابيع التشاؤم وقد كانت من قبل شحيحة مغمورة. ونشبت أزمة في الضمير العلمي منذ برز بوضوح وجه العلم المدمر. فبـدأ العلمـاء أنفسـهم يسـمون الأرض دار الخـرف وجهـروا بعداء هذا الضم الأصم: العلم الذي يعطينا مع الرفاه المادي أدوات الانتحار. وقالوا: لقد جعل منّا العلم آلهة قبل نستحق أن نكون بشراً!..

إن أشد المبتكرات العلمية براءة وأكثرها نظرية قد تنتهي إلى أخطر التطبيقات: ومن ذا الذي كان يظن أن كشف الطبيعة التموجية للمادة سنة 1924 سينتهي إلى تفجير الذرة في قنبلة سنة 1942؟ بل من ذا كان يخرق الغيب سنة 1905 وهو يقرأ معادلات اينشتاين الرياضية الخالصة ليقرأ بها مستقبل هيروشيما والمدينة س و ع من مجاهيل المستقبل؟

من خلال نقاط الضعف هذه اقرأ اليوم في ما يشبه الإجماع بضرورة إعادة النظر في العلم: في أسسه وفي دوره

الإنساني وفي رسالته الاجتماعية وينتظر الإنسان اليوم طريقاً جديدة في العلم يعيد على أساسها صياغة عالمه العقلي.

والمأساة الكبرى في هذا الموقف القلق أنه لا يمكن أن يتم ذلك دون جهد ودون ألم صميمي يهز الكيان الإنساني كله لأن قدر الإنسان جعله "هو الرخام وهو النحات والأزميل في وقت واحد".

إنسان هذا العصر

لعلكم سمعتم بالمأسوف على شيخوخته (ديوجين). إنه فيلسوف يوناني سبقنا في الدبيب على هذه الأرض ثلاثة وعشرين قرناً. عاصر الاسكندر الفاتح وأرسطو الفيلسوف وكان الناس يرونه أبداً في رأد الضحى أو وقد الظهيرة، ينتقل بين الشاطئ والسوق وفي منسرب الوادي وعلى نهود الرابية: على كتفيه قدره الفخاري الذي ينام فيه وفي يده مصباح مضاء ومن ورائه كلب يلهث. وكان إذا سأله سائل:

ـ وفيم المصباح يا ديوجين؟

أجاب إني أفتش عن إنسان!

لم يكن الناس يتلمسون أجسادهم ليبرهنوا له وجودهم ولكنهم كانوا يتساءلون، معه: ومن هو هذا الإنسان؟

وكان هذا السؤال العتيق عتق هذه الأجساد التي تضمنا، وهذه الأدمغة الثرثارة في أعلى جماجمنا، يظل دون جواب... ومنذ ذلك الوقت الأسطوري الذي كان فيه الإنسان لغزاً على لسان غول أوديب إلى اليوم الذي أقرت فيه حقوق الإنسان ما يزال هذا السؤال قائماً يزداد إلحاحه وتعنف قسوته من حضارة لأخرى ومن يوم لآخر!

ما معناه ولماذا نسأل؟ ولماذا نلح على تحديد الإنسان وتعيين الحدود التي تفصله عن باقي الكائنات الحية؟ تلك حاجة كيانية إنسانية فكل شيء في حياتنا يتوقف في النهاية على تصويرنا لأنفسنا والإنسان صانع نفسه بمعنى أن جميع مظاهر حياته من سلوك وتفكير وعاطفة إنما تنحدر في النتيجة من فكرته عن نفسه.

وليس تنسجم فكرتي عن نفسي مع فكرتك عن نفسك ولا تتفق بل لعلها تختلف اختلافاً بيناً ومن الخير لها أن تختلف. وهي تختلف من شخص لآخر ومن حضارة لحضارة ثانية ومن لحظة إلى أخرى تالية. فبين إنسان الغاب الذي تتمثل فيه حيوانية الإنسان وبين سوبرمان نيتشه الذي تتمثل فيه ألوهية الإنسان مراتب ومواقف عدة تتراوح قلقة بين القطبين وتعكس على أعمالنا لحظة بعد أخرى منتجات

متعاقبة متقلبة نرى في بعضها حطة الحيوان وغريزة الطين ونرى في بعضها الآخر سمو الإله بكل فرحه العرم! ولعل ذلك ما عناه الشاعر أبو ماضي حين قال:

إنـــني أشـــهد في نفســـي صـــراعاً وعراكـــاً

وأرى ذاتـــي شـــيطاناً وأحيانـــاً ملاكـــاً

هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكاً

أم ترانـــي واهمـــاً فيمـــا أراه. لســـت أدري!

وهكذا فالصورة التي يمكن أن نجمعها للإنسان تضم آفاقاً فضفاضة مترامية تنوس بين الحيوانية والألوهية، ويا بعد ما بين قاصيها ودانيها!! ولهذا السبب يختلف موقف الناس بعضهم من بعض وتختلف ردود فعلهم تجاه الطبيعة ويختلف التاريخ في مجراه السرمدي!

ولـن أعـرض بعـد لنظـرات المفكـرين الأقـدمين إلى الإنسـان فمنـذ حـوّل سـقراط نظـر الإنسـان مـن السـماء إلى الأرض وإلى ذاتـه وقـال: "اعـرف نفسـك بنفسـك" سـجل المفكـرون تعـاريف كـثيرة: حـاول أفلاطون تعريف الإنسـان بأنه حيوان، عاري الجسد قائم على قدمين فعمد صاحبنا

ديوجين بسخره الماكر إلى ديك فنتف ريشه المزركش وأتى مدرسة أفلاطون فألقى في حلقته بين القهقهة والدهشة بالديك المنتوف قائلاً: هذا إنسان أفلاطون! ثم حاول أرسطو تعريف الإنسان بأنه حيوان فيلسوف وأتى آخر فقال إنه حيوان ناطق وجاء ثالث فقال إنه ضاحك وجاء رابع وعاشر وعشرون... جاء كثيرون وبعضهم ربط وجود العالم بوجوده كديكارت!!.. قلت لن أعرض لهذه النظرات لأنها نظرات شخصية ربما كانت تستوي في القيمة عندي مع نظرة أي عامي ساذج لا يرى في نفسه أكثر من شيء يأكل ويشرب ويشتغل. كما أنها على مسافة واحدة من الحق والباطل مع أي نظرة أخرى غير هذه النظرات ترى في الإنسان تارةً ما يراه البيولوجيون من أنه جهاز فيزيولوجي من الحجيرات المركبة والعضوية الحية وتارة ما يراه التاريخيون من أنه ابن الماضي ووارث كل رواسبه أو ترى ثالثة ما يراه الدينيون من أنه مخلوق يحمل على كتفيه صليب أوزاره أو يجرر قيود قدره، أو ما يراه الاقتصاديون من أنه آلة إنتاج أو التطوريون من أنه حيوان.. حيوان فحسب! أو الفنانون من أنه قلق أو إبداع... أو لا شيء أبداً...

إني لأذكر أمام هذه النظرات المتباينة تلك القصة التي تقوم في مخيلتي كلما شهدت معركة كلام أو ثورة جدل: قصة جماعة العمى الذين جاءهم فيل فأقبل أحدهم يتلمس قدميه ثم صاح هذه أعمدة! ولمس آخر أذنه فقال لا! هذه مروحة رقيقة. وداعب ثالث خرطومه ثم نفر.. إنه أخطبوط في رأيه وتحسس رابعهم جسده فكذب الثلاثة لأن ما بين يديه هو حائط!

هذا والفيل لم يزل فيلاً ولم يزل فيه أشياء أخرى ما أدركوها منه! وكذلك الإنسان هو كل ما ذكر التطوريون والاقتصاديون والفلاسفة والبيولوجيون والدينيون وذلك العامي الساذج وأشياء أخرى أيضاً ما أدركوها منه! ولعلها هي سر إنسانيته!

ولقد اشتهر قبل الحرب الأخيرة بين الناس كتاب نجح صاحبه الدكتور كاريل في عرض المشكلة منذ أعطاه عنوان (الإنسان ذلك المجهول!) ولقد يعجب أحدنا لهذا الإنسان الذي انتصر على أشياء كثيرة وعرف أشياء كثيرة، كيف يقبل أن يظل هو نفسه لغزاً مغلقاً... وكيف لا يهتدي اهتداء علي بابا إلى كلمة السر فينفتح الكهف وترقص الكنوز! ولعل الإنسان شغل منذ القديم بالنظر إلى

الطبيعة فلم ينظر إلى نفسه وأجهد فكره في ابتكار الآلات فلم يتوفر الوقت لهذا الفكر كي ينعكس على ذاته!.. ولعل هذا العقل الذي نديره في جماجمنا ـ إن كان مكانه حقاً هنالك! أضعف أو أضيق أو أبسط من أن يحيط بتعقد العضوية الحية أو بتشابك الشعور ومجاهيل اللاوعي..

ولعل المنطق الأرسطي والنسب الرياضية والخطوط الإقليدسية التي تسيطر على الفكر الإنساني تخدعه ببساطتها وظواهرها المعقولة عن الحقيقة الكبرى!!

وما أكثر ما يمكن أن تنثر في هذا المجال "لعل" وأخواتها وعائلتها!.. وما أكثر ما ترقص الظنون!!

على أن جهل الإنسان بالإنسان لم يمنع هذا الموكب البشري من أن يتخذ في كل حين موقفاً معيناً من الحياة والكون والعمل ينسجم مع فكرته عن نفسه وتنحدر عنه مفاهيمه الأولى وسلوكه العملي. وإذا كانت الحضارات الأولى ذات مبدأ ـ أم واحد على الغالب تصدر عنه القيم فمأساة الحياة الحديثة أن نداءات شتى تتناهب قلب الإنسان وتتجاذبه وقيماً مختلفة تغويه على الدرب.

أي درب هذا؟ لست أدري ولكن إغواء الاتجاهات المختلفة للإنسان يشتد اشتداداً يصل في الواقع إلى درجة

المأساة. وليس أمر الإنسان معها تافهاً كأمر أبي نواس بين الفالوذج واللوزينج ولا كحيرة حمار بوريدان الذي كان جائعاً عطشان فلما قدم إليه الطعام والماء حار بأيهما يبدأ. حتى مات من الجوع والعطش! لا إنه قلق كياني أعمق وأعنف يمزق ضمير الإنسان بالريب... أرأيتم إلى جنيات الغاب كيف تعرت لبوذا تفتنه عن سبيل الإله؟ أم إلى الغابة الرهيبة التي نفذ منها دانتي إلى الدار الآخرة... في كل لفتة نداء جديد يحمل مفهوماً جديداً إلى الناس وصيحة.. تأخذ شكل دين له كهانه وشهداؤه وله شرعته ومبشروه اللاهبون!...

العلم أولاً يدعو الناس إليه: يؤمن العلم بالإنسان ـ الجسد لإنسان المادة ويعتبر كل نصر يحقق في ميدان المعرفة نصراً على الطبيعة، وقد استطاعت الحقيقة العلمية أن تجد الكثيرين وأن تجد بين العلماء دعاة، لهم تأثير الأنبياء وحماس الحواريين وإلحاح باعة اليانصيب!! إن بوانكاريه

حين أعلن مبدأ (العلم للعلم) كان يبشر بمبادئ ثلاثة؛ ما كان من نبي واثق من رسالته أكثر من ثقته (بوانكاريه) بها:

كان يؤمن أولاً أن المعرفة لا متناهية، فلا حد بالتالي إذن للتقدم ولإمكانية السيطرة على المادة ولا حد بالنتيجة لمجال استثمار الكون استثماراً عقلياً.. وما دام الإنسان قد علق بمطلع الدرب فما عليه إلا أن ينطلق ملء ساقيه!

إن أكثر العقول وضعية ليفتتن بهذه المبادئ "الإيمانية". لأنها إنما تنبع من الفكر وترتد إليه وتدشن بين هذا وذاك أولية العقل وسلطانه المطلق.. وقد وجد في نهاية القرن الماضي من تساءل: فيم نتكلم عن الله؟ إنه ليس سوى اسم لما نجهل! وكلما تقدمنا في المعرفة ازداد هذا المفهوم الضبابي تضاؤلاً وازدادت امبراطوريته صغراً..!

وقد بلغ "دين العلم"، أوج النصر حين استطاع الفكر الإنساني أن يتسلل خلف الذرة إلى نواتها وكهيرباتها وشحناتها السلبية والإيجابية، وحين اطلق ذلك المارد الضخم الحبيس هناك منها!..

على أن هذا النصر نفسه حمل إلى الإنسان بدء الفشل. والمنطق الجدلي يقضي أن تحمل لحظة النصر في ذاتها عوامل انتحارها. وهكذا لم يفتح انفجار القنبلة الذرية فراديس الأمل بقدر ما أطلق سحب التشاؤم. ولم يقتصر الخوف على الجماهير بل دخل أبراج العلماء ومخابر الخاصة

من الباحثين فأخرجهم على هذا الصنم الأصم الذي يعبدون! وتمرد بعضهم حتى على العمل العلمي كله.. فهناك أزمة ضمير حادة تحوم كالخفافيش المرعبة، الماصة للدماء، في أجواء المخابر!

وعاد العلماء، أمام هذه القوى المدمرة، التي أطلقوها يراجعون موقفهم الأخلاقي، عادوا يضعون من جديد في الميزان بجانب قيمة العلم: أخلاقية العلم.

وبرز بين صفوف العلماء أنبياء جدد أدركو النقص وحاولوا تلافيه جوليان هكسلي مثلاً يعلن "الإنسانية العلمية" ويقول: "يمكن للحياة الإنسانية أن تقوم بثورة خيرة من خلال انتشار التفكير العلمي والمكتشفات العلمية وخاصة في الحقل البيولوجي، من خلال إدراك الإنسان المتزايد لقدرته على أن يكون خالق قيم خلقاً واعياً.. يجب أن نقيم التوازن بين العلم والنزعة الإنسانية فندرك أهمية القيم العلمية والبحث العلمي وندرك في الوقت نفسه أن القيم الأخلاقية والبديعية. أمور تفهم وتحس عاطفياً وما لم ينتظم العالم تحسس عميق لها فلن تطمئن قلوبنا إلى المعرفة!".

ويبرز هنا الدين فيدعو الناس بدوره إليه: الله في الدين هو القطب لا الإنسان. ومهمة الدين بصورة عامة أن يرسم للإنسان حدوده أمام اللامحدود ويفهمه تناهيه أمام اللامتناهي. إنه يقيم التوازن في نفس الإنسان، بأن يخلق له عالماً آخر ميتافيزيكياً لا يصطدم فيه بقسوة المادة ولا ترهقه الحدود ويشبع فيه نزعته إلى الكمال المطلق.. أكبر الأديان المنتشرة الثلاثة: البوذية، والمسيحية والإسلام، لا تختلف في ذلك. وكل منها خلاصة عقائد وتقاليد تاريخية عريقة، عميقة الجذور... وآخرها زمناً الإسلام أكثرها إقبالاً على الحياة الأرضية برغم أن الدنيا فيه دار مفر وأن الآخرة هي المستقر. والله تعالى عند المسلم يأخذ شكل قوة كبرى لها الأسماء الحسنى فهو القادر العادل، البارئ المنتقم الجبار المتكبر الرحمن الرحيم وأما الإنسان فمخلوق ضعيف محدود: 9وخلق الإنسان ضعيفاً؟8 9أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً؟8 9هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟8 9فلينظر الإنسان مم خلق8 9إنا خلقناه من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً8 9وبدأ خلق الإنسان من طين8 وقد منَّ الله على الإنسان بخلقه الجميل 9إنا خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم8 فيا 9أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك بأي صورة ما شاء ركبك؟8 9يا أيها الإنسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه8 "وهدف الخلق واحد هو العبادة 9وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون8 ولهذا 9علم الإنسان ما لم يعلم8 وجعل قيمة المرء في عمله 9وأن ليس للإنسان إلا ما سعى! 8.

والإنسان في المسيحية أبعد قليلاً عن الحياة الدنيوية إن ملكوته الحقيقي في السماء في عالم السيد المسيح الذي هو الله والكلمة الله. ولقد تجسدت الألوهية مرة فأعطتنا الحقيقة كاملة دفعة واحدة كلمة الله تجسدت إنساناً هو السيد المسيح: فهو الإنسان الكامل. وهو حلقة الوصل بين كمال الله الأسمى وبين خطيئة الإنسان.

والمسيحي أسير حب الله وهو بنتيجة ذلك مدفوع خارج هذا العالم إلى ما هو أعلى منه، موحد مع الله بالإيمان. وكل شيء يأتي من السيد المسيح ويعود إليه فهو نهاية التطور وهو الحياة "وهو الله".

ويأتي البوذي بخطوة أخرى توحد الإنسان باللانهائي وإنها لسبحة من سبحات الفكر أن نسمع طاغور يقول "إن حياة الإنسان والكون حقيقة واحدة كبرى.. مبدأ وحدة

الوجود ليس فكرة فلسفية فحسب بل إن غرض الحياة هو إدراك ذلك التناسق العظيم في الإحساس والعمل، بين البشر والوجود. إن عظمة الإنسان ليست في قوة تملكه للطبيعة بل في قوة اتحاده بها.

لأنه اتحاد الله الذي يتراءى في أبهى شيء في النور والبستان والوجه الصبوح كما يتراءى في أبخس شيء.. والإنسان في جوهره ليس عبداً لنفسه ولا للآخرين بل هو محب. وحريته وكماله في الحب الذي هو اسم آخر للشعور الكامل.. وهكذا نفهم من طاغور هذه النجوى:

"الحب وحده أنتظر لأستسلم لذراعيه، لهذا فات الوقت وكثر مني الإهمال.

"من شرائعهم وقوانينهم حاكوا لي قيوداً ولكني أفلت منهم أبداً لأني لا أنتظر سوى الحب لاستسلم لذراعيه.

"لاموني وعابوا إهمالي ولا ريب أنهم في لومهم مصيبون.

"أقفلوا الأسواق وفرغوا من قضاء حاجاتهم. والذين بحثوا عني عادوا خائبين.

"الحب وحده أنتظر لأستسلم لذراعيه.

"كم جلت عيناي من أفق قبل أن أطبقهما وأقول: أنت هنا! "لقد حسن في عينيك فجبلتني لا نهاية لي.

"هذه الكأس الواهية تفرغها مرة بعد مرة ثم تملؤها أبداً حياة طرية.

"تلمسني يداك لمسة خالدة فيطفر قلبي الصغير.

"عطاياك لا متناهية يداي صغيرتان لكن اسكب فسوف تفنى الأجيال ويبقى في يدي فراغ!

ويبرز بعد هذا الملحدون والعلمانيون ليرموا بكل هذه القيم إلى الطين. وسأقتصر على أخذ مثلين اثنين منهم: (سارتر) في الوجودية و(جيد) دعوني قليلاً من هذا المفهوم العلمي الشائع للوجودية الذي يرى فيها ابتذلاً وتحللاً من كل قيد.. إنه مفهوم شائع ولقد شكا سارتر من أن سيدة تلفظت مرة بكلمة نابية ثم استدركت معتذرة وقالت: يخيل إلي أني أصبحت وجودية!!.. دعونا منه إلى ذكر الموقف الوجودي من الإنسان.

الإنسان عند سارتر كائن موجود أو قضي عليه أن يوجد:

ولكن لنحذر من أن نحدده بمفهوم أو نعرفه بصورة... إنه في البدء لا شيء وهو لا يوجد إلا فيما بعد حين يعمل وفي عمله يصنع نفسه، ويحددها. وهو لذلك مسؤول مسؤولية صميمية عما يعمل.

والإنسان يختار نفسه بنفسه وهو حين يختارها يختار جميع الناس لأن كل عمل من أعمالنا إنما هو صورة عن الإنسان كما تحب أن يكون.. فالإنسان في كل لحظة يخلق قيمة.. قيمة إنسانية تحدد المصير.

وراء هذه الأفكار العامة تكمن الفكرة ـ الأم عند سارتر وهي أن الإنسان حر، متروك لذاته في الكون، وحيد كالغصن العاري في صقيع الشتاء! والحرية هي النسيج المشترك للوجود.

والإنسان لهذا السبب مسؤول وعليه كل لحظة أن يختار...

إن هذا الموقف مرعب دون شك ويبعث على أعمق اليأس ولكن سارتر يسميه بالتفاؤل القاسي. ويقف (أورست) في مسرحية الذباب، عند سارتر، أمام إله الآلهة جوبيتر فيقول أورست:

ـ أنت ملك الآلهة يا جوبيتر وملك الصخور والكواكب وملك الأمواج في كل البحار. ولكنك لست ملك الإنسان!

ـ لست مليكك أنت؟ أيتها الدودة الخالية من كل فطنة؟

ولكن من ذا الذي خلقك؟

ـ أنت! وكان يجب ألا تخلقني حراً.

ـ إنما وهبتك الحرية لخدمتي.

ـ هذا جائز ولكنها انقلبت ضدك ولا حيلة لي ولا لك في ذلك.. لست السيد ولا العبد وإنما أنا الحرية لم تكد تخلقني حتى خرجت من نطاقك.

ـ أنت إله وأنا حر... كلانا وحيد وكلانا في اليأس سواء.

ويجيب جوبيتر في مكان آخر: إن سر الآلهة إنها تعلم أن الناس أحرار وهم لا يعلمون.

... إن الحرية إذا تفجرت في روح إنسان لم تستطع حتى الآلهة شيئاً ضده.

وأما الإنسان عند (جيد) فلغز وقلق عميق ولذلك فهو كنز غني بالجديد حافل بما ليس ينتظر "فكن مخلصاً لنفسك" إن هذه الوصية تعدل جميع الوصايا لأن الإخلاص للذات معناه الإخلاص للحياة... ولا تكفيك الحرية: إن معرفتك كيف تتحرر ليس شيئاً وأهم منها أن تعرف كيف تكون حراً أن تقدس التجربة الفردية. لا تدع الله ـ على

الطريقة المسيحية ـ أن ينجيك منها فهي نقطة البداية. إن الفرد ظامئ إلى التجربة لأنها سبيل التجدد الدائم. وسبيل الفرح الذي هو الغاية. وكل الطبيعة تعلم ذلك.

لنحمل في أنفسنا الرغبة الملحة للثمر الذي لم يقطف وللنبع الذي ما لمسته شفة ظامئة. وللمسرة التي لم يذقها بعد أحد والإنسان مقياس كل شيء، وما من إنسان يستطيع أن يكون نموذجاً لآخر لا فالأبطال ليسوا مثلاً عليا بل صوراً تعلمنا كيف نخلص لأنفسنا ونكون من نريد نحن لا ما يراد لنا أن نكون!

أليس علينا أن نأسى للملايين الذين قضوا وكلهم توق إلى حياة أخرى غير التي عاشوها وإلى ينابيع أخرى غير التي شربوا منها؟ إنا نبني وجودنا لحظة لحظة متى عرفنا أن وجودنا امتلاء وعنفوان.. متى آمنا بقدرة الإنسان على أن يمنح تجربته سرمدية الوجود الإنساني..

واحسب هنا أن ذوي التفكير السياسي الاجتماعي قد ضاقوا ذرعاً بهذه اللغة الشعرية في تناول الحياة فإنهم ينادون الإنسان بدورهم أيضاً لكي يعمل ولكن في المجتمع وللمجتمع: كما في الديمقراطية والشيوعية. سأدع المعسكر الديمقراطي... لن أذكر لكم منه سوى ما أعلنه

أخيراً من حقوق الإنسان سنة 1948 فلقد بلور فيها وكشف موقفه من الإنسان. وتلك الحقوق تعتمد على أن الإنسان كائن خير مريد للخير، متى عرفه (على الطريقة السقراطية في التفاؤل) وإذا كانت الثورة الفرنسية قد أسست الديمقراطية السياسية إلا أن التطور الاجتماعي خلق في العالم مشاكل جديدة من جهة، كما أن تقدم العلوم والاكتشافات من جهة أخرى مكن الإنسان من إيجاد حلول جديدة للمشاكل الإنسانية. ولهذا أعلنت وثيقة أخرى لحقوق الإنسان في العالم منذ أربع سنوات تتضمن إلغاء كل تمايز بين البشر، اقتصادياً كان هذا التمايز أو فكرياً أو سياسياً أو اجتماعياً. أعلن مثلاً حق الحياة وحق الحرية وحق العيش الأمين وحق العمل وحق التعلم.. وتوصي الأمم بعضها بعضاً بهذه الحقوق كمثل أعلى مشترك تسعى إلى بلوغه.

أما الإنسان في الماركسية. فهو الكنز الأكبر على الأرض. وهدف الماركسية إلغاء استغلال الإنسان بأي شكل وهي لا تعترف بوجود كيان إنساني إنسان منفصل عن ظروفه الاجتماعية الاقتصادية ليس هناك من إنسان خير أو شرير. الطبيعة الإنسانية خرافة مثالية والذي يحدد الإنسان هو مجموع الشروط الاقتصادية ـ الاجتماعية التي

يعيش فيها ولهذا فالإنسانية إذن فكرة نسبية متغيرة من زمن ومن مكان إلى مكان آخر.

ولذلك تدعو الشيوعية إلى حل مشكلة الإنسان بتنظيم ظروفه المادية تنظيماً جديداً. وتحقيق التكامل بين الإنسان والطبيعة لا يكون إلا عن طريق العمل الذي يدمج الإنسان في بيئته ويكيف ويعدل البيئة وفق المطالب الإنسانية.

أأستطيع أن أقول إن الشيوعية تلغي الفرد؟ لا! إن المساواة لا تعني أبداً التجانس. والهدف ليس إيجاد مجتمع موحد ولكن إيجاد إنسان جديد!

وأخيراً دعونا نقفز قفزة شعرية علمية معاً من الواقع مرة واحدة إلى ما فوق الواقع، من الإنسان إلى ما فوق الإنسان هناك أيضاً من ينادي هذا النداء.. وهم كثيرون ولكن نيتشه يظل شاعرهم الرائد!

لقد شقت تطورية دارون ذلك الحجاب الكثيف المسبل على مبدأ خلق الإنسان كما هدمت بالمقابل "سد الاسكندر الرصاصي" الذي يحدد نهايته. وصلته من قبل بباقي الكائنات وتركت له حبل الأمل من بعد مطلقاً لا نهائياً.. وجاء نيتشه فبث هذا الأمل إلى نهايته. وبلهجة حارة كلهجة الأنبياء أخذ يدعو لفكرته المفعمة بالأمل القاسي:

إني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوق (ما فوق الإنسان). فما الإنسان إلا كائن يجب أن نفوقه. إلا إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه.

لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوق إنه من الأرض كالمعنى من المبني فلتتجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحاً لها.

لقد ماتت جميع الآلهة فلم يعد لنا من أمل إلا بظهور الإنسان المتفوق. فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة حين تبلغ الشمس الهاجرة.

ما فون الإنسان هو الإله الجديد!

أتوسل إليكم أيها الأخوة أن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يخوفكم بآمال تتعالى فوقها. أولئك هم المزورون للحياة.

تعلموا من هو الإنسان المتفوق. إن هو إلا ذلك المحيط الذي تغرقون احتقاركم في أغواره. هو اللهب وهو الجنون!

الإنسان حبل مشدود ما بين الحيوانية والإنسان المتفوق، حبل فوق الهاوية.

إن عظمة الإنسان قائمة في أنه جسر وليس نهاية. وما يستحب فيه أنه سبيل وأفق غروب!

إني أحب أولئك الذين لا يبحثون وراء النجوم عن علة يموتون من أجلها، الذين يضحون بأنفسهم للأرض كي تصبح يوماً مهبط الإنسان المتفوق..

هذا هو قدر الإنسان فليعرف كيف يحمل عبء هذا القدر..

وبعد! أتستطيع أن تقول لي بين هذه النداءات والاتجاهات من أنت؟ وأين أنت؟

أما أنا فقد أعياني البحث عن نفسي، ولقد كنت أعرف عنها أشياء كثيرة وكنت أعرف لها دربا قبل ما فكرت بها واحسبني أزداد بعداً عن نفسي وعن طريقي كلما ازددت ركضاً وراءهما.

ما من سبيل إلا وأغرت قدمي وها أنذا أرتجف خجلاً من جهلي. ولعلي سأظل طويلاً حيث أنا عند مفترق السبل، كغول أو ديب، أسأل كل عابر من أنت؟ لعلي أعرف في شفة أحد العابرين من أنا؟

الإنسان لدى قادة الفكر

قبيل نهاية القرن الماضي استعرض الشاعر مالارميه عصره، فشبهه بطير من طيور مالك الحزين، باغته صقيع الشتاء في الماء وتجمدت البحيرة التي ينام فيها على حين غرة، تجمدت حتى أبعد رعشة في أعماقها فالطائر يبذل كل أعصابه وتعبه ليهز هذا الاحتضار الأبيض حوله، وينجو من رعب الأرض التي اصطكت على ريشه وعضت جناحه المريد.. كان الشعر والعلم والفكر والفن كان كل شيء في أواخر القرن الماضي قد جمد في قوالب من العقائد المطلقة أبرد من الجليد وأقتل. فالعالم موقن كل اليقين من حقيقته القاسية، والفنان مطمئن أبعد الاطمئنان إلى قواعده الأكاديمية، ورجل الدولة واثق ثقة النهار من سداد حيلة السياسة. كل مؤمن بغناه أو بفقره متصلب الكف حول قبضة من القيم لا ينتظر أن يغيرها الدهر. على أن الجليد

أضحى شظايا منذ مطلع القرن مع دفقات الربيع الفكري الجديد. والطائر اليوم لم يدع درباً تعتب عليه. فأنت ترى ريشه على كل صخرة فوق هذا الجلد، وكل موجة. ولقد أراد (روجيه كايوا) أن يصور الفكر الحديث فما وجد سوى أن ينتزع له الصورة من برج بابل. وأنت تعرف حديث هذا البرج العتيق:

أراد بناته أن يسموا به تراباً على تراب إلى السماء "سمو حباب الماء حالاً على حال" وصعدوا ثم صعدوا حتى إذا أعياهم بعد النجم وأرهبهم فراغ الفضاء تمردوا على المهندسين وعلى قواعد البناء وعلى الأرض وأقبلوا يبنون أهواءهم ويفكرون بالأصابع.. ولكنهم ليسوا على يقين من شيء. فالبرج الكبير فوضى من القيم والمسائل والمواد واللغات، فوضى تتجه من اليأس في الأبعاد الأربعة جميعاً وترى بالرأس تارة وبالقلب واليدين تارات.

كأن منجم الأقوام أعمى

لديه الصحف يقرؤها بلمس

واحسب بعد هذا أنه من الصعب ومن الحرج أن نختار للفكر الحديث قائداً أو قادة في هذا البرج فلكل كوكبة على مدارجه منهج وسبيل واعتداد حرون وأشد من ذلك

صعوبة وحرجاً أن يعذرني الناس في اختياري إذا اخترت وأن اعذر نفسي..

لا سيما وأنا في سبيل السكوت عن ماركس وعن ربع الكرة الأرضية التي تمشي وراءه وعن أينشتاين وجمهور العلم والعلماء جميعاً وهم رواد الفكر في الأرض وعن أولئك الذين يفسرون الحياة والفكر بلغة أصعب من الحياة والفكر وندعوهم برغمنا: فلاسفة الإنسان. وسأسكت إلى هذا وذاك عن الفنانين بلغوهم العاطفي الطفل وعن الساسة وما يجرون وراءهم من القطيع، وعن رجال الدين.. سأترك الجميع إلى قبضة من المفكرين بنى كل منه بيعته بيديه صلصالاً وتزاويق وطبقات من وهم الواهم، فمن تراه يعذرني في هذا الاختيار؟ سأقف عند (بيراندللو) و(جيد) و(سنكارلويس) و(ويلز) فقط فمن تراه لا يغمز بعينه وهو يحسبني أقول إنهم قادة الفكر الحديث؟

قد يعذرني أن هؤلاء نماذج من الطين النبيل ـ ما أحب الطين النبيل! ـ تمردت على همود الطين لتحيا القلق والفرح والمأساة وسواد الحب وصقيع الجمود ونشوة اليوم السابع للتكوين. لتحيا إنسانية الإنسان فماذا علي لو سألتها عني وعنك وعمن حولي وحولك من بني الإنسان؟

أكثر هذه الأسماء عتمة هو دون شك (بيراندیلو) هذا الشيخ الريبي الذي قذف للفكر بعدة مسرحيات كلها جرأة وجرح لليقين.

ولولا ذماء من دعابة يخلع على مؤلفاته بعض الظل الندي، ويبعد عنها جور المأساة لكان فنه الروائي هو الجحيم البشع أو شيء مما صوره خيال مواطنه دانتي عن عذاب الجحيم!!

الإنسان عند هذا الشيخ ليس بمخلوق محدود معين ولكنه موضوع مأساة نفسية غريبة: إنه حزمة من غرائز وإرادات ضعيفة لا تستقر على حال من القلق والتلون.. ولهذا فلا شخصية هناك ولكن شخصيات عديدة متناقضة.. مائة أو مائة ألف أو لنقل أن لا حقيقة هناك ولا صدق وجود وما الإنسان سوى هذا الشيء المتبدّل في كل لحظة شيئاً آخر. أنت وأنا لسنا سوى هذه الصور المتعددة التي يكونها الناس عنا ونكونها نحن عن أنفسنا لحظة لحظة. ولكن من ذا يستطيع أن يؤكد أننا هذه الصورة لا تلك وهذه الشخصية دون الأخرى؟

وتبدو الحياة الإنسانية من خلال فكر بيراندیلو مهزلة فاجعة، فالعقل ليس بسجن للتقاليد والأوضاع والنواميس

ولكنه أيضاً صدفة جوفاء ليس في قعرها سوى الغريزة والعمى. أو كيس لا يمكنه الوقوف وهو فارغ فنحن نملؤه بالحوادث والأعمال عن وعي أو غير وعي وبإمكانك أنت أن تكون عشرات من الناس تبعاً للحظة التي تمر بك وللإطار الذي تنطلق فيه وقد يتوقف بك الزمن فجأة عن التغير فإذا أنت كالساعة التي تسمرت عقاربها عند رقم معين، إذاً أنت في سجن لحظة تجتر فيها العمر كله.

في مسرحية "ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف" يدخل أفراد عائلة على مدير مسرح فيعلنون له أنهم عبارة عن شخصيات خطرت في بال مؤلف مسرحي ولكنه لم يتم خلقها خلقاً كاملاً فهم يتوسلون إلى المدير أن يسمح لهم بتمثيل الأدوار التي كانوا خلقوا من أجلها إلى أن تخلى عنهم المؤلف الأصلي.. ولا يمضي بنا بيراندیلو في المسرحية إلا ليقول لنا في كل عطفة منها أنّا ممثلون في مسرح مجهول وبيدي مؤلف مجهول!. وأنا فرائس عجز أصيل فينا فرائس نقص نشتاق أن نفر من عبوديته.. وإذا نحن أحببنا دورنا، إذا أحببنا أن نبقى به ونتخذه قناعاً إلى الأبد فنحن كبطل مسرحية هنري الرابع الذي تداخلت فيه حدود الجنون والعقل والحياة والموت فليس يدري، ولا ندري معه، أعاقل هو أم مجنون؟ وحي هو أم ميت؟

وننتقل إلى (جيد) في فرانسا.. لقد أثار هذا الرجل من اللعن والعبادة في الناس ما يتفق إلا لبطل في أسطورة.. ومن العبث أن نسأله ما هو الإنسان أنه لا يعرفه ولكنه يعرف فقط ماذا يستطيع الإنسان؟ وماذا يجب أن يكون؟ هو يؤمن بهذا المخلوق الكنز دون أن يحدد ماهيته ويعرف أن القلائل فقط اكتشفوا (لغز علي بابا) فتفجر لهم كهف الذات المسحور بكل ما فيه من نور وعتمة ومن طهر الملاك ولعنه الخطيئة في العروق.

وتقرأ "الأغذية الأرضية" بما يغمرها من دفء خصب فتشعر أن وراءها شفة نبي ململم "كن مخلصاً لنفسك" هذه وصيته وهي تعدل، عنده، الوصايا العشر وما جرت!.. والإخلاص للنفس معناه تقديس التجربة لأنها "سبيل التجدد الدائم وسبيل الفرح" "فلنحمل في أنفسنا الرغبة الملحة للثمر الذي لم يقطف وللنبع الذي ما لمسته شفة ظامئة!.. وللبدء كل لحظة! يجب أن لا يكون الإنسان شيئاً ليستطيع أن يكون كل شيء، أن لا يملك ليستطيع أن يتمتع بكل ملك، أن لا يتبنى أمراً ليستطيع أن لا يخسر، أن لا يستقر ليظل في كل لحظة على استعداد لرفع الشراع..

ومع هذا فإنّا نستطيع أن نجد عند (جيد) هذا الذي يكره الاستقرار ثلاثة مبادئ مستقرة:

فهو يقول أولاً بضرورة الإخلاص المطلق وانتزاع النفس من أي مبدأ، من أي حب، من أية رسالة لئلا يكون الإغراء كأغلال بروميثوس قيد الأبد. و"الإنسان مقياس كل شيء وما من إنسان يستطيع أن يكون نموذجاً لآخر" لأن الخلاص يقتضي التفرد ويقتضي أن يبني كل منا حياته على نموذجه الخاص لبنة، لبنة.

ويقول جيد ثانياً بحب الحياة: كل حياة! إنه هو الذي يزعم أنه استنفد الأغذية الأرضية جميعها دون أن ترويه. والإقبال على الحياة ليس خطيئة ولعنة، كما هو عند أوسكار وايلد وبودلير، ولا بحثاً عن المثل الأعلى أو المطلق كما يريد هولدرلن، ولا طريقاً إلى الحقيقة، كما حاول غوته بل هو وجودنا الإنساني الحي نفسه.

هو هذه الأعصاب والدماء والضلوع، وهذا القلق الذي يشيع كالضباب بينها. هو هو الإنسان نفسه.

ويقول جيد بحب الحرية أبعد الحرية. لا حرية الهوى الصرف ولا عدم المبالاة ولكن الحرية المبدعة الإيجابية. إنه يبدأ كتابه (اللاأخلاقي) بهذه الكلمات "أن تعرف كيف تتحرر ليس شيئاً والمهم أن تعرف كيف تكون حراً" وينهي الكتاب بقوله: "...لقد فككت قيودي قد يكون ذلك

صحيحاً ولكن ما الفائدة؟ إني آلم للحرية التي لا استعملها" وبعد هاتين الفقرتين يسجل جيد "مأساة الحرية" مأساة الإنسان الذي لا يعرف كيف يفيد من الحرية وهي ملء أهابه وقيد جرعة منه.

وأنتقل بعد هذا، عبر المحيط، إلى أميركا وإلى سنكلر لويس: وإذا كان بيراندیلو وجيد غارقين في المشكلة النفسية للإنسان فلويس يتجه إلى الإنسان الحالي بفكره وقلبه: "إنه يؤمن به كقدرة خلاقة فالتجدد في الذات الإنسانية حاجة أصيلة أصالة اللون في الزهر. والتجانس مقبرة تسلب الفرد كل ما فيه من عنفوان. على أن الإنسان، أمام أضخم ازدهار مادي حققه، أضحى يشك في قدرته على أن يكون العنصر المبدع، أضحى يحطم ذاته بدلاً من أن يثق بها. إن الآلة تلف الملايين بردائها الأسود وتخرجهم نسخاً كالدمى: بمقياس واحد وحركات متماثلة بين الصباح والمساء، الناس اليوم قطيع من العبيد أصابتهم عدوى الآلة ودورانها الرتيب فهم عاجزون حتى عن التمرد على عادة بسيطة.. إن (بابيت) بطل قصة سنكلر لويس التي تحمل هذا الاسم مثال للأمريكي العادي الذي لا يستطيع أن يدخل على حياته أبسط ثورة: لا يستطيع أن يقلع عن التدخين أو أن يغير مكان إلقاء شفرات حلاقته كل صباح

ويفشل حتى في الخروج للنزهات التي يحلم بها والنصيحة الوحيدة التي يقدمها لابنه هي: إني لم أستطع طول حياتي أن أفعل ما أريد فاذهب يا بني واصنع ما تريد..".

وبهذا يبدو تمرد لويس وقلقه الإنساني الصميمي. إنه يبشر بالفرد ضد الآلة وبالحياة ضد التجانس الرتيب. وقد يفشل هذا الجيل في التمرد كما فشلت (كارول) فتاة قصته (شارع مين) في البحث عن الجمال والغبطة واللذة مع توقها الشديد إلى هذا الثمر الحرام.

ولكن لابد من أن ينتصر الإنسان.

ونصل أخيراً مع (ريلز) في إنكلترا إلى القطب الآخر المتفائل. وإذا كان غيره يغرق في اللحظة الحاضرة فإنه معلق الأعين بالمستقبل. وبالرغم من أن هذا المفكر بدأ دراسته في البيولوجيا وما أكثر عناصر التشاؤم فيها! ودرس التاريخ ففي زوايا فكره من الإمبراطوريات التي تنهار والنفوس التي تحصد ما يكفي لتبرير كل سوداوية وكل يأس، برغم ذلك فإنه يرفع رأسه من المستنقع دوماً ليضحك للنور وللتفاؤل، وبدلاً من أن تسقط عنه كالقشور الجافة مثالية الشباب ويقف مع الأيام وجهاً لوجه أمام الجمود المادي فإنه بالعكس يزداد على الشيخوخة شباباً وأملاً.

الإنسان عنده مخلوق ـ حيوان، المكان الذي يعيش فيه يربطه إلى تراب الأرض والزمان الذي يخترمه يربطه إلى التاريخ.. ولكنه مع ذلك هو المخلوق الوحيد الجدير بأن يقف في وجه مجزرة الطبيعة ويناضل قوى السواد والموت.

وسواء كان الإنسان شريراً حتى نخاعه الشوكي، أو كان ابن الفردوس فإن الشر ليس بكثير في العالم. إن قبضة من الحكمة إن بعضاً من النور والخير يكفي!.

على أن الخطر الذي يتهدد الإنسان لا يأتي من شره العريق فقط ولكن من عدم وعيه لقدره. ومن إساءة استخدام قوى العلم والآلة، فالعالم يسير الآن كالمخبول دون فكرة نبيلة أو هدف. والشراع الذي يسير على غير هدى لابد أن تمزقه الصخور.

على الإنسان أولاً أن يعي أنه من مواطني الأرض، كل الأرض. وإنه جزء من هذا البشر ولابد من أن يعمل في هذا الجو ولا مجال للاختيار أبداً فإما دين الإنسانية وإما نهاية الإنسانية.

ولهذا فلابد للإنسان نفسه من أن يتغير في أسس حياته وفكره. عليه أن يتعلم أولاً أن يواجه، شأن سائر المخلوقات،

مشكلة من مشاكل التكيف يجب أن تحل. أن كثيراً من الزواحف الهائلة والمخلوقات الجبارة قد انقرضت لعجزها عن الانحناء لحاجة البيئة المتطورة.

والعلم قد ألقى الإنسان في بيئة مادية واجتماعية جديدة لابد من التكيف معها، وإلا فمن اليسير التنبؤ بنهاية الجنس البشري.

ويرسم ويلز على أسلوب المصلحين الاجتماعيين، الطريق. فلا بد من تربية جذرية للإنسان ولابد من نشر قدر أدنى من المعرفة يزحف حتى أبعد كوخ في الأرض.. لابد من التمهيد لحضارة عالمية.

***

وبعد فمن بيراندیلو إلى جيد إلى سنكلر لويس إلى ويلز مرحلة بعيدة الخطى واللهاث في برج بابل.. ولكنها إلى هذا ألوان من الظمأ الإنساني وجيل يحاول أن يزداد إيماناً بنفسه، ولقد تضللنا بعض هذه النظرات عن أنفسنا ولقد ترمي في أعماقنا بالقلق والشوك. وماذا على القلق لو هزنا وهو أخصب الكروم؟ وماذا على الشوك لو نبح؟ أليس وراء أكليل الشوك تجلى ذات يوم على إحدى ربانا نحن، وجه الإنسان ـ الإله؟

الإنسان وما فوق الإنسان

للكاتب الإنكليزي (آلدوس هاكسلي) قصة معروفة: (حجة بحجة) وبين الشخصيات التي يديرها فيها شخصية ذلك الشرير الصالح (سباندرل) الذي جعله (هاكسلي) مثلاً لما يراه من المفارقات الساخرة في الطبيعة البشرية حيث يتجاور هيكل الله وجحيم الشيطان.

فقلب سباندرل مفعم بالنبل والعاطفة، ولكنه مع ذلك يقبل وحشية الجريمة. وهو يقترف الجريمة لا لشيء إلا لأنه لم يستطع أن يقاوم جاذبية الشر! ولكنه يجلس بعدها بقليل إلى رفيقه رامبيون، يحاول أن يقنعه بوجود الله عن طريق الإصغاء إلى مقطع نبيل من إحدى سمفونيات بيتهوفن.

إن شخصية سباندرل تنعكس، على مقاييس مختلفة الظلال، في كل منا، فالإنسان، هذا المخلوق الخصيب،

مضغة عريقة في الطين والحمأ، ولكنه في الوقت نفسه، عين مع النجم وتوق وراء النجم. "كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء". ولقد تهوى به حيوانيته وتهوي حتى ليتشمم بالأنف غذاءه وبالشفة. ولقد تنطلق به شحطة من عبقرية أو جنون أو تصوف فإذا بينه وبين الغيم شبر أو بعض الشبر! وبين هذين القطبين، ننوس أبداً نحن البشر وينوس معنا كل ما نصوغ ونزوق من أخلاق وفن وعلم ودين وفلسفة.

ونحن بعد، نقطع الأيدي شوقاً إلى التعلق بالغيم، ونذوب، ذوب أكباد العشاق، رغبة في الكمال والسمو على الذات. ديدن فينا قديم!. ولست أدري منذ متى يأسف الإنسان على أنه لم يخلق على شاكلة الملائكة. ولكن من المؤكد أنه أدرك، منذ زمن طويل، إن فيه شيئاً، كثيراً أو قليلاً، من الحيوانية، شيئاً يشده، كأساور الرصاص في أرجل المغرق، إلى صخور الأغوار. وهو منذ ذلك الوقت يجاهد لينساه ويبرأ منه، يجاهد ليخلق من هذا الإنسان، ما فوق الإنسان.

ولست أدري مرة أخرى هذا التوق للكمال، ما منبعه في الإنسان وما متفجره؟ إلا أن يكون الصورة الإيجابية

لشعورنا بالنقص، والوزن الآخر الذي يعدل بنا الكفة ويعيد التوازن الشيال!. فالإصرار على خلق إنسان جديد يعدل إصرارنا الدائم على الشكوى من سوء كل وضع نمر به، كلاهما إلحاح ماثل أبداً في الخاطر، واثب دوماً على كل لسان.

ولا شك أنه نوع من المقاومة والتمرد على الحضيض ـ ولعله أياً نوع من التطمين المنافق للنفس ـ هذا الذي يلقنه أب لابن من وصايا، وتبتكره شفة ملهمة من أسطورة وشعر، ويسطره عقل لعوب من علم أو فلسفة، فليس غير الإنسان كائن يحفزه مثل هذا القلق الملح الدائم للسمو على الذات وتخطيها إلى ما فوق الذات.

ولقد عمل البشر على خلق الإنسان المتفوق في ذاتهم.. ملايين الملايين آمنوا بذلك.. الآية القرآنية الكريمة تقول: 9لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات8. والكتاب المقدس يروي بدوره أن الإنسان خلق على صورة الله! وهذا العقل المبتكر المبدع دوماً يفتح الباب العريض لأمل النفوق...

ألسنا لهذا يا ترى نرهق عواتقنا بأكداس الوصايا والألواح ننقلها من جيل إلى جيل، ثروة تحذرنا من نقائصنا

الخلقية وغرائزنا الوحشية، من هذه الكهوف الرقطاء التي هي نحن! ألسنا لهذا أيضاً نقوم بالرياضة الصوفية ونثرثر بالشعر والخيال ونقول ببدعة الفن ونجرر وراءنا ركام المعرفة والنظريات وجثث المذاهب الفلسفية؟ ألسنا لهذا أيضاً وأيضاً نقدس الأنبياء ونكبر المفكرين ونمجد ذكرى كبار السابحين على الرماح والمزغردين للفجر والحب؟..

ولقد كان البشر يتحدون أحياناً ذاتهم فيطلقون أناسيهم الكوامل رؤى من عالم الوهم والأسطورة. ومن ذلك كل ما ابتكر الإنسان على صورته من جماهير الآلهة العتيقة، بحقدها ورقصها، وبطيشها الفاتن وحبها الجسدي وبريق عيونها الرهيب! ومن ذلك ما صور أيضاً من أبطال لهم تارة القوة التي تخرب الهيكل أو تصرع الإله، وتارة الصبر الذي يتحدث غضب الأرباب، وثالثة الغناء الذي يذيب الصخر أو المغامرة التي تطحن كل عاصفة!

وسواء كان الإنسان المتفوق ابن الأرض أم ابن الوهم، فإن البشر لم يستطع العيش قط دون سدة من أصنام، كانت في الغالب صورة مزورة من أناسيه الكوامل... وكانت صورة فيها من الشعر والأمنية أكثر مما فيها من تراب الأرض... حتى كان القرن الماضي وجاء داروين

وتطورية داروين من جهة... كما جاء التقدم العلمي الرائع من جهة أخرى وجاءت سيطرة الدماغ الإنساني الصغير على قوانين الكون الكبير... إذ ذاك هتك الستر الذي أسدله القدم على مبدأ خلق الإنسان، كما هدم بالمقابل سد الإسكندر الرصاصي الذي يحدد مصيره وقدرته. وصلته الداروينية بباقي الكائنات الحية في مطلع الحياة كما تركت له حبل الأمل من بعد مطلقاً لا نهائياً! وأعطاه العلم الحديث من نعيم الآلة والقانون، ملء عطفيه غروراً وفيض كفيه ثقة...

وبرغم الجو العلمي الحصيف الذي لبسته بهذا فكرة الإنسان المتفوق فإنها لم تستطع التخلي عن قصيدة الشعر، وبرغم تلك السلسلة من الكائنات التي تمرح في مطلعها أصناف النبات والهوام والزواحف وتصعد في نهايتها مع انتصاب العمود الفقري للإنساني حتى الدماغ الإنساني الجبار، فإنّا لم نستطع أن نخرج من ذلك كله إلا بأن الإنسان مؤهل للتقدم المطرد وأنه في يومه أكمل منه في أمسه دون شك. وأنه في الغد سيكون.... سيكون ماذا؟ إن متابعة الطريق المقبلة بقيت من نصيب كبار الحالمين. وما أكثر الذين أغرتهم الطريق بالتنبؤ والحماس... بعضهم

أعطى الإنسان الأجنحة، حلم الملائكة القديم، وبعضهم تصوره رأساً ضخماً يلتمع فوق شبر من الجسم وبعضهم.... وبعضهم.

على أني سأقف دون الجميع عند مفكرين اثنين اكتفيا بترتيل الصلوات للإنسان المتفوق كل على طريقته: نيتشه، وبرناردشو...

دعا نيتشه بلهجة حارة كلهجة الأنبياء إلى هذا الأمل القاسي: "إني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوق. فما الإنسان إلا كائن يجب أن يفوق ذاته. إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئاً يفوقه.

"لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوق. إنه من الأرض كالمعنى من المبنى. لم يبق لنا أمل إلا بظهوره. فلتكن هذه إرادتنا حين تبلغ الشمس الهاجرة. ما فوق الإنسان هو الإله الجديد. تعلموا من هو؟ إن هو إلا ذلك المحيط الذي تغرقون احتقاركم في أغواره. هو اللهب وهو الجنون. الإنسان حبل مشدود ما بين الحيوانية والإنسان المتفوق، حبل فوق الهاوية. إن عظمة الإنسان قائمة في أنه جسر وليس نهاية. وما يستحب فيه أنه سبيل وأفق غروب. إني أَحب أولئك الذين لا يبحثون وراء النجوم عن علة يموتون من أجلها، الذين

يضحون بأنفسهم للأرض كي تصبح يوماً مهبط الإنسان المتفوق!".

وأما برناردشو فأقل التهاباً من صاحبه لأنه شاء أن يدفع العقل، العقل البارد نفسه، إلى الأمام. ويقف في مسرحيته (الإنسان المتفوق) ثلاثة شخوص، في الجحيم، يتناقشون: دون جوان والعجوز (آنا) والشيطان ويقول دون جوان:

ـ ماذا تظن أن دماغي هذا قد ابتدع؟ لم يبتدع الحاجة إلى تحريك أعضائي على كل! فإن فأراً له نصف دماغي ليتحرك كما أتحرك... ليست الحاجة إلى العمل بل إلى تبين ما أعمل وفهمه... هذا هدفي!

وتسأل العجوز ـ أليس في الجنة غير التأمل يا جوان؟

فيجيب: إني لا أطلب في الجنة غير هذه المسرة. لكن هناك العمل على الأخذ بيد الحياة وهي تجاهد في سبيل السمو. إنها بحاجة إلى دماغ، إلى تلك القوة التي لا تقاوم!.

ويتدخل الشيطان قائلاً ـ كل ما فعله العقل أنه جعل الإنسان أكثر بهيمية من أي بهيم! فجسم بديع واحد يساوي عقول مائة فيلسوف ممعود منتفخ البطن!.

فيقول دون جوان ـ تنسى أن ضخامة الجسم التي لا يحيلها عقل شيء قد جرب... فقد وجدت وانقرضت مخلوقات كانت أضخم من الإنسان جداً وأعظم إلا في ناحية الدماغ!

ـ وهل الإنسان أقل إهلاكاً لنفسه مع كل هذا العقل الذي يباهي به؟ إن الإنسان لا يبتكر في فنون الحياة شيئاً لكنه في فنون الهلاك يبز الطبيعة نفسها!

ـ سحقاً لك، إن هذا لشيء عتيق. أنت تحكم على الإنسان بتقديره لنفسه..

ـ إن فكرتي، أيها الآلة العتيقة التي تحمل رأساً من رخام، لا تبعد عنك إلا خطوة. أفنحن متفقون على أن الحياة قوة قامت بتجارب عديدة لا حصر لها في سبيل تنظيم نفسها؟

إذن فهي ستتابع سيرها في معارج الرقي على الدوام حتى يكون الفرد المنشود هو القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، المعصوم الواعي لنفسه مع ذلك وعياً تاماً لا يخدع وعلى الجملة: إله..

إن الحياة لم تقس محاولاتها للوصول بالإنسان إلى مرتبة الألوهية بالجمال أو بكمال الجسم. ولكنها تسعى

دوماً إلى العقل، إلى العضو الذي لا تبلغ به وعي الذات فحسب ولكن فهم الذات أيضاً!

أقول لك إني ما دمت قادراً على أن أتصور شيئاً أفضل مني فلن تهدأ نفسي حتى أكافح في سبيل إخراجه إلى الوجود أو إفساح الطريق له".

ويأتي برناردشو هنا عصا الرائد!.. فقوة الحياة التي أنشأت في الكائن الحي، بعد عصور من النضال، ذلك العضو العجيب: العين ليرى عالم المادة، هي التي تنشئ اليوم عيناً عقلية تستبين غرض الحياة وتسعى إليه... ذلك رأي (شو) الأخير:

أيكون هذا حقاً هو المصير الإنساني الراقي؟ إن ألواناً من الاستفهام تحوم وترتمي حول هذه النهاية للإنسان المتفوق. فقد تكون الحياة أولاً فاتنة بما فيها من نقص وعوج، ولو قد كملنا، لو قد أضحى العالم كعبة قديسين إذن لفقدنا الكثير من الفتنة مقابل فوزنا بالنبل! لو كنا ذوي عقولة كاملة وكنا مخلوقات لا تعرف الإثم ولا الضعف ولا الشذوذ ولا هوس الشفة وعضة الحقد إذن لأضحى العالم تافهاً أي تفاهة! إن الحياة تضحي إذ ذاك مطاردة لواقع فقد المفاجأة واجتراراً لآفاق مملولة نعرف كل ما وراءها!

ثم إن الإنسان الكامل صورة هاربة دوماً؛ مختلفة أبداً في أبعادها الأربعة فما لون هذا المخلوق الذي ننتظره، أهو أطول قامة أم أقصر؟ إنه لن يضاف ذراع لطولنا مهما رفعنا الصيحة ولن نزداد فقرة!

ثم هل نسعى بإرادتنا للقاء هذا الذي يفوقنا أم ننتظر ظهوره؟

إن الإنسان في الواقع لا يريد الكمال حتى يصبح هو نفسه إنساناً كاملاً فكأنه لا يريد الكمال أبداً.. وكيف يخلق ذلك الإنسان؟ على الورق أم في الحياة؟ وبطريقة الحياة نفسها من تجربة وخطأ؟ أم بطريقة أخرى؟

وأخيراً هل يأبه الإنسان المتفوق المنشود بما لنا نحن الآن من مثل عليا كالحق والواجب والشرف والعدل أم يزدري هذه المسوخ الكاذبة؟ أو يبتكر مثلنا قصيدة غزل ولحن وتر وآلة منطق أَم يدوس تراثنا الطفل؟ ويقبل أمجادنا وحضارتنا وقفزنا على الأرض أم يلهو بنا لهو (غوليفر) ببلاد الأقزام؟.

حسبنا؟

حسبنا من هذا المدى البعد بعد التوق. فأنا لن نطأ تلك الدروب على السحاب وقد لا يكون ثمة من دروب تقود إلى

تلك القمم. بلى قد تكون مساوئ الحياة أقسى من أن تحتمل دون انقلاب جذري. وقد تكون الأرض مرتع حيوانات خطرة يعيش بينها بعض الناس الكوامل.

.. قد يكون ذلك! ولكن لا إنسان آخر غيرنا سيحل هنا على الأرض، لا من منحط ولا من متفوق، ولكن إنسان يثبت إنسانيته جيلاً جيلاً! أني أعتقد بالتقدم العلمي لا بالقداسة وأومن بالعقل لا بالكمال المطلق وأَثق بالإنسان نفسه لا بما فوق الإنسان.

عالم الوهم، نحن صغنا رؤاه وأَردناه أن يكون فكانا!

لست تستطيع أن تكون إلها فإذا اسطعت فلتكن إنسانا!

مأساة الإنسان

من فاوست إلى هملت

"منذ مدة أذيع في الناس خبر، مر في عتمة الأخبار، ولعلك قرأته مصادفة وطويت الجريدة. ولقد مر في هذا الخبر اسم، لعل القلائل فقط يعرفونه" الدكتور اوبنها يمر صاحب القنبلة الذرية الأولى. ولقد ذكر معه أن الرئيس ايزنهاور أمر بتطويق الرجل وأن يحبس عنه كل سر من أسرار الذرة المتفجرة وقالوا : إنه أضحى خطراً... منذ استيقظ ضميره!.. لقد كان العبقرية الكبرى بعد اينشتاين في العالم الحاضر، كان (فاوست) المتطلع إلى كل شيء بأي ثمن... منذ سنوات. أما اليوم فهو (هملت) أتعرف هملت؟!"

ترددت طويلاً قبل أن أفرض على نفسي هذا الموضوع، خشية أن أكون كالمأسوف على فروسيته (دون كيشوت) أحارب الوهم وأطعن بالرمح الخشبي أشباحاً تخلقها لي عيناي. وخشيت أكثر من هذا أن لا يكون للمأساة التي

يتخبط فيها الإنسان الحديث من صدى في بلدي، فأين نحن من الحياة الحديثة ونحن لما نزل عند عتبة الهيكل؟ وأين منا أفراحها العرمة إن كان لها من أفراح، ومآسيها الساحقة إن كان لها من مآسٍ، ونحن بعد على هامشها نجتر أمانيها وننعم بنتاجها ونترك لغيرنا عبء الإبداع والخلق، ونشوة الفرحة البكر عند ارتياد النبع والصرخة الدامية عند الانهيار؟

على أن قصة الدكتور أوبنهايمر فجرت المأساة لكل عين.. وأما بلدي فسيعرف اليوم أو غداً هذه المأساة. إن الحياة الحديثة التي تتسلل حتى إلى الصحارى العربية ستفرض يوماً ما مشاكلها. والآلة التي تدخل أرضنا صماء بكماء ستتحدث ذات يوم إلى من توقعه المصادفات في قبضتها. وليس من بأس، في أن نعاني الأزمة قبل أن تكتمل عناصرها فينا، وليس من بأس إن تفجرت المأساة بكل عنفها في نفوسنا. أو ليست هي التي تمهد لنا درب الحياة الأصيلة المقبلة في هذا المفترق من الدروب؟

لكنني سأكتفي بصورة المأساة وحدها دون الدروب، فأنا لم أقصد إلى حل مشكلة بقدر ما أردت أن أضع مشكلة وأُثير تساؤلاً. أنا أكتفي إن أغفى قارئي اليوم وحول رأسه إشارة استفهام!

وبعد فهل للإنسان الحديث من مأساة؟ وأين هي تلك الأزمة الفاجعة التي يشكو منها؟ أنا أعرف أن الشكوى رافقت كل العصور حتى ليخيل إليَّ أحياناً أن التاريخ كله ليس أكثر من آهة متصلة. وليست هذه هي المرة الأولى التي يطفح فيها القلق واليأس ويجرف الناس، فقديماً شكا الفيلسوف الفرعوني والكاتب الفينيقي، وشكا سقراط وشكا ديوجين والرواقيون.. وكثيرون بعدهم قبل المتنبي وبعد المتنبي قالوا معه:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على هرم

"فكل من تلقاه يشكو دهره" وأمس، في اليوم التالي لمعركة (واترلو) سنة 1815 سجل (لامونيه) الأسطر التالية: "إن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة إلى الهلاك. إنه في النزع الأخير كذلك الجريح المسكين الذي لا يرجى له شفاء. إنه يتخبط في دمه، فكثرة الأخطاء في حضارتنا وقوى الزمن التي لا تقهر تجررها حتماً إلى الغرق"! وأخيراً أما ارتفع اليأس اليوم وارتفع "العبث" ليصبحا عقائد وفلسفات للوجود؟

لا شك أن الشكوى الدائمة ميزة إنسانية. والإنسان هو الحيوان الوحيد القلق لأنه بعكس جميع الكائنات يحاول

دائماً أن يفوق ذاته. وما شكواه غير دليل على تطلعه الدائم إلى ما فوقه؛ لو على الأقل إلى إنسان آخر جديد! على أني أعتقد أن عصرنا الحالي من العصور النوادر التي فتكت بها الأزمة في العمق والاتساع والشمول فتكاً يستحق أن يرتفع بها إلى مرتبة ا لمأساة!

لقد مر بالإنسانية كثير من الأزمات دون شك ولكنها كانت تصيب القطيع البشري ككتلة، لا الإنسان الفرد الشاعر بذاته، كإنسان اليوم. وقد أوجدت الحضارات السالفة فكرة العالم الآخر فاستطاعت إيجاد شيء كثير أو قليل من التوازن مع مساوئ هذا العالم. كما ابتكرت أحياناً أمل "المسيح" (المنقذ) أو المهدي المنتظر فتركت كوى الأمل مفتوحة للناس، ولكن الإنسان الحديث يعيش إلى حد كبير دون أمل. لا ثقة له بعالم أفضل ينتظره ولا بمهدي يقلب له الأرض فردوساً! إنه في قدره اليائس أشبه بأبطال المآسي اليونانية؛ أشبه بأوديب أو هرقل أو ديدال يعرف مصيره ويراه ويعرف في الوقت نفسه ألا مفر من الإغفاء على سكين القدر!

وينعت "برتراندرسل" هذا الموقف الإنساني اليوم بكلمة "جنون العصر" كما سميت السويداء في مطلع القرن الماضي

بمرض العصر. ويسميه أحياناً: "جنون الانتحار" لأن الناس في رأيه في الشرق والغرب "يرون التفتيش عن التعاسة والشقاء أكثر سهولة من البحث عن السعادة الحقيقية". ولكن هذا الجنون قد شاع لدرجة لف بها كل شيء وتسرب حتى إلى الحياة العادية. وشرب الناس من نبعته وسيشربون أيضاً كما اضطر الملك العاقل في الحكاية أن يشرب بعد أن شرب شعبه، من نبعة الجنون!

وإنا لنستطيع أن نتتبع مظاهر المأساة الإنسانية القائمة في كل خلجة من حياة الناس. وحين تناولتها الأقلام، في العام الماضي، بمؤتمر جنيف تبين أنها أضحت حقيقة يرتجف لها مخبر العالم كما يهمس بها حلم المصلح وتقطر من أقلام المفكرين فلسفة سوداء كما تنحدر عن أيدي الفنانين أدباً قلقاً وتصويراً متمرداً وموسيقى ثائرة!

دعونا نبدأ بالأدب! لا لأنه ألصق بالنفوس وأقرب إلى رعشة القلب فحسب بل لأن الأدباء ساهموا كأية فئة أخرى إن لم يكن أكثر من أية فئة أخرى في خلق هذا الجو من السلبية واليأس المخيم.

ليس فينا من لم يقرأ قليلاً أو كثيراً من "الأدب الأسود" وليس فينا من لم يسمع عن قرب أو بعد بتلك الخصومة

المتصلة التي تكافح بها بعض المذاهب ذلك الأدب وتدعو إلى حرقه لكثرة ما يندفع الشباب كالذباب النهم حول موارده وما يعانون في نشوته من أَلم قد ينتهي إلى الجريمة أو إلى الانتحار، وإلى انكماش في مثل (نرفانا) الهنود أو إلى استسلام رخيص لا يبالي بشيء!

وإبطال هذا الأدب الأسود ليسوا بالقلائل ولا بأصحاب الفكر الضعيف وإني لأراهم مواكب طويلة تُسكر (أو تسمم لست أدري) إبداع هذا العصر: هذا فرانز كافكا (التشيكي) تقرأه فما تزال تدخل معه من عتمة إلى عتمة ومن مبهم إلى مبهم آخر ى ينقضي، وتخرج من قراءته دون أن تنتهي إلى شيء. ولكنك تحس فجأةً أنه احتفر في أعماقك هوة رهيبة وأنه وضعك وجهاً لوجه أمام القوة المجهولة التي تسحقنا فلذة في عبث حقير غريب.

هذه خلاصة ما يريد قوله في كتابه (سد الصين) وفي (الدعوة) و(القصر) ويصل به الأمر في قصة (المسخ) إلى أن يتصور فتىً أفاق ذات صباح فإذا هو قد مسخ حشرة كأبشع ما تكون الحشرات وإن كان ما يزال له عقله الذي يعي وقلبه الذي يجب ونفسه التي ترضى وتغضب. ولا تزيد القصة عن أن تروي ذبول العواطف في قلب الأم والأخت والأب حتى

تنتهي الحشرة إلى موت حقير سخيف. وتسأل نفسك في النهاية: أَتراه كان يتحدث عني؟ عن هذه الحشرة البشعة المهملة فوق هذا الكوكب!

وننتقل إلى سارتر من فرنسا. إنه يعرض وجهاً آخر من المأساة الإنسانية. ليست مأساة القدر ولكنها مأساة الوجود نفسه، وجودنا الذي لا قيمة له والكون الذي لا معنى لقيامه فإن شعورنا بالوجود يثير فينا ما ثار في نفس أنطوان روكانتان "بطل سارتر" أمام شجرة الكستناء: (الغثيان) "... لم يتركني الغثيان ولا أعتقد أنه تاركي وشيكاً. ولكني لا أقاسي منه أي شيء. إنه ليس بمرض ولا بضيق عارض. إنه أنا وقيمة سارتر كما يقولون هي في أنه أعطانا نظرة وقيماً تنطبق مع عالم الشهادة هذا ومع إنسان هذا العصر، ومع يأس الفكر المعاصر. وإذا كنا نراها بأشكال مختلفة في (الأيدي القذرة) و(الذباب) أو في (طرق الحرية) فإن "ماتيو" يظل دوماً البطل النموذجي لها.

ونقفز إلى أمريكا. فنلقى في الطرف الآخر من المحيط صورة أخرى للمأساة لدى من ما يسميهم النقاد بـ"الهدامين" و"الجيل الهالك" ولكنهم مع هذا نالوا، جوائز نوبل للآداب. ومنهم لويس ومنهم فولكنر.

فأما سنكلر لويس فالمأساة عنده هي جحيم التشابه والتجانس الذي انحطت إليه الحياة الحديثة. كأن الآلة قد نشرت رداءها الداكن على ملايين البشر اليوم فإذا هم قطيع لا يدري ما يريد ولا أين يسير أو كأنها ابتلعت شخصياتهم وصهرتهم في قوالب تخرج كالدمى بالملايين من المعامل لتحقق حركات رتيبة متماثلة لا تستطيع منها فكاكاً. وفي قصة (بابيت) يقدم لويس نماذجاً للإنسان ـ الآلة: رجلاً اجتمع له الثراء والرفاه والنجاح في العمل ولكنه لا يستطيع التخلص من أبسط عاداته: إنه عبد! برنامج حياته اليومي رسم مرة واحدة وإلى الأبد! كحياة الكثيرين حولي وحولك!! والنصيحة الوحيدة التي يقدمها لابنه قوله: "إني لم أستطع طول حياتي أن أفعل ما أريد فاذهب يا بني واصنع ما تريد". وكل أبطال سنكلر لويس من هذا النوع الذي يريد ولا يستطيع لأن الحياة الآلية تلتهمه: "كارول" التي تحاول في قصة (الشارع الرئيسي) أن تحطم التقاليد: "آروسميث" العالم المثالي الذي يحاول تخليص العالم من التفاهة والجشع. "غانتري"، "نيكرز" وغيرهم.. كلهم.

ونمر بعد هؤلاء لماماً، كتقبيل الفراشة للورد، بفولكنر الذي يرى أن البشر منفي على هذه الأرض ويعرض

في مآسيه لنضال الإنسان المرعب ضد الفناء. ولكنه يتركه دوماً حطاماً دون أمل. وليس من بطل من أبطاله يحاول أن يتعرف سر شقائه لأن هذا العالم، برأي فولكنر، كان وسيظل شراً لا يدرك.

ونقف لحظة عند "جيد" الذي رأى أن لعنة الإنسان الحديث أنه لا يحيا، ولا يتذوق الحياة، فجعل كل رسالته الدعوة إلى التجربة وإلى المعاناة. إنهم يصم أذنيه عن سماع كلمة الإنجيل "ربنا نجنا من التجربة" ليدعو إلى التجربة الروحية والأرضية والفكرية على السواء. ويألم أن ينتظر عند الباب لا يدخله وأمام الثمرة الحرام لا يذوقها والأفق يصيبه مجهوله فلا يقتحمه! آمن أن المتعة الكاملة بالحياة هي نسيج وجودنا. إنها ليست خطيئة ولعنة كما كانت عليه تجربة أوسكار وايلد وفيرلين وبودلير وليست وسيلة للمعرفة وللوصول إلى الحقيقة كما جعلها غوته ولا بحثاً عن المثل الأعلى أو المطلق كما هي عند "هولدرلن" و"رامبو" بل هي وجودنا الإنساني الحي. وهنا كل المأساة!

ولقد يمكن أن نذكر هنا عدداً كبيراً آخر من الأدباء. "دوسباسوس" الأمريكي، و"كامو" صاحب (خرافة سيسيفوس) وتزفايغ الذي بشر بالقلق والشيطان حتى مد له

الشيطان أنشوطة الانتحار، ولكن لا بد أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان التعبير: إلى التصوير. وأكتفي قبل أن نخوض في بيكاسو وماتيس وقبائل الأطياف والألوان أن أسجل تلك الفردية المغرقة التي تجتاح الأدب المعاصر، وهي في ذاتها ثورة وتمرد وصرخة هرب، ثم تلك المأساة التي يصورها بوجوه مختلفة وألوان متفاوتة. ووراء ستارها أبداً يقبع الإنسان كالقط المبلل الخائف!

وليست تلك الفردية ولا هذه المأساة بأقل ظهوراً في التصوير. منهما في الأدب. ومن المعروف أن الثورة الأصلية التي حققها التصوير في هذا القرن هي تحطيمه لفكرة المدارس الفنية وتحريره الفنان من سيطرة أي مذهب ذي قوانين وتقاليد وتلاميذ. ليس من مدارس فنية ولكن جو محموم بالأساليب التي تتكاثر تبعاً لأمزجة الفنانين وللتيارات الغريبة التي تسوقهم إلى حيث لا غاية! صحيح أن الينبوع الذي استقى منه الجميع هو الانطباعية: انطباعية (مانيه) و(سيسلي) و(رنوار) و(ديكا) ولكن التمرد بدأ منذ (سيزان) و(فان غوغ) و(غوغان) وهو اليوم أبعد من أن يكون واقفاً عند هؤلاء الذين ما أرادوا هم أن يقف عندهم أحد.. لسبب بسيط هو أنهم ليسوا على يقين من شيء! إن ميزة

الفنـان المعاصـر أنـه في فـيض شـديد وخصـب متزايـد. قلبـه طـافح بـالعواطف ودماغـه يغلـي بالأفكـار ويـده المحمومـة تصـوغ أشـكالاً يرميهـا في العـالم لتأخـذ في العـيش وتنمـو حسب المنطق الجدلي الـذي يختص بهـا والوسـائل الـتي تتهيأ لها. ولكنها جميعاً ليست بانعكاس أمين للواقع لأنها تهرب منه إلى عماوة التجريد الذاتي.

هكـذا يظهـر التصـوير العـالمي اليـوم فرديـاً متمـرداً متجاوبـاً مـع فرديـة الأدب وصـرخته. ولعـل هـذا لم يكـف الفنـانين للتعـبير عـن سـخطهم علـى الواقـع الفـاجع فقـاموا يعـبرون بالأسـلوب نفسـه عـن هـربهم وعـن ضـيقهم بـالكون الطبيعـي، وبـالنظم الرتيبـة وبالعقـل. إن الأسـلوبين الشـهيرين اللـذين يصـطرعان اليـوم: التكعـيبي، أسـلوب بيكاسـو وبراك من جهة، والمتوحش أسلوب ماتيس جهة وفلامينـغ من أخرى، يلتقيان رغم صراعهما في هذه النقطة وهي كرههما للواقع المنظم! فبيكاسو مثلاً بهلوان هارب! لا يرسم ما يرى بعينـه ولكـن مـا تريـده نفسـه. إنـه يحطـم الشـكل الخـارجي الذي لا يعبر عن ذاتية الفنان ويعود فيبنيه من جديد خطوطاً ومواشير ورؤى وجـرات ألـوان متسـاوقة متنـافرة في وقت معـاً! إنـه ينشـئ مـن ذلـك عالمـاً آخـراً حـراً يخلـص إليـه مـن هـذا العالم، عالماً محور التعبير فيه الفكر المجرد!

وأمـا (مـاتيس) بالمقابـل فبـالرغم مـن أنـه يـرى أن الحساسية هي صاحبة الدور الأول في التعبير إلا أنه يرسم حسب ما تمليه عليه حواسه ومشاعره الخاصة، فهو بدوره أيضاً يخلق عالمه من جديد ويحس به ويحبه. ويقول صاحبه فلامينغ: "إننا لا ننتج رسوماً ولكننا نصور رسومنا. إن التصوير فردي.. كالحب!" ولعلنا نعجز الآن عن إيضاح ما تعنيه خطوط بياكسو وألوان ماتيس وغيرهما من صراخ وألم ومن فزع ودم وشقاء، ولكنا لن نعجز عن استخلاص فكرة واحدة منها هي أن التصوير الحديث يحمل على الأقل معنى عميقاً من معاني المأساة في هذا العصر.

في وسعنا إذا نحن تذكرنا تنهدات الكمان وصراخ البوق أن نقول مثل ذلك عن الموسيقى... أجل فهي أيضاً تعيش المأساة الإنسانية: وتعيشها منذ (واغنر) في القرن الماضي ومنذ (ديبوسي) ويحوم في خاطري هنا (سترافنسكي) كتحويمة النسر، ويقفز (شونبرغ)!

سترافنسكي ذلك السريالي البدائي الذي يفرض عليك جنون اللحن فرضاً: ضربات متوالية لا تدع لك من أعصاب تقاوم وهزة متتابعة يحاول أن يفرغ بها كل المأساة التي تدمى في ضميره. يحاول أن يعبر عن معنى شعوره بالقلق

ويمطر العاطفة الإنسانية ببذور سوداء من الرجفة والرعب. حتى في قطعته (صلاة الربيع) التي تبدأ بعبادة الأرض وقدوم الربيع وتختتم بالرقصة العذراء المقدسة، حتى في هذه القطعة نجد الربيع يطلب ضحية بشرية! إن الطبيعة لا تعطي إلا لتأخذ وإذا أعطت فرحة الربيع فلتأخذ الجمال ولتأخذ الشباب ولتأخذ المرح!

ويمثل (شونبرغ) ثورة أخرى. إنهم يدعونه تعبيرياً ويرون أنه عض القيود وحطم حتى الـ(Thème) ولكن ما معنى هذا التحطيم؟ وكيف قبله الناس إن لم يكن يتجاوب مع قدر هذا العصر؟

وبعد فقد نتهم الفنانين أجمعين أنهم على مسافة واحدة من العبقرية أو الجنون، فلنلتمس سبيلاً أهدأ وأحسن منقلباً في الفلسفة! ولكن اللعنة الفاجعة تلاحق الإنسان في هذا الأفق أيضاً؟... كمطاردة القدر (لأوديب)! ولا يكفيني هنا أن أنقل كلمة من (لونوبل) عن هذا العصر ولعلي لا أنسى معنى ظهور الوجودية والفرويدية مثلاً. يقول (لونوبل): "لا شيء أحسن كشفاً للحاجات الخفية والجراحات العميقة في عصر من العصور من لعنة العفوية ومن المسائل التي يعرض لها. وهكذا يمكن للمرء أن يتأكد بسهولة من أن حاجة

عصرنا المعذب هي حاجة للوجود. إننا حيثما اتجهنا وجدنا وجودنا، بقاءنا الخالص العميق، مهدداً. إن قوى الجسد لا تكفي لحماية وجودنا. والفكر تكفنه تلك الهزات المزعجة في الحياة اليومية. إن الجماهير تهدد الشخصية من جهة بينما يخرق الفرد من جهة أخرى وحدة الحياة رداً على ذلك، ليتحرر. إن زمننا هو زمن القلق الأعظم، زمن الوجود المهدد. ولم يلقف الخطر كل حياتنا الواقعية ولكنه نفذ إلى أعماق الفكر الميتافيزيكي!"

ومن هنا نفهم لماذا تسمّت الأفكار الشائعة اليوم: ثرثرة على الألسن وفلسفة في رؤوس المفكرين وابتذالاً لا أبالياً على أرصفة باريس باسم (الوجودية). إن اصطدام العقائد المتعارضة وانهيارها ويأس الفكر من عالم عدوٍ مقيت أوجد في الناس ظمأ عنيفاً إلى التمسك بالوجود قبل أن يضيع وإلى التساؤل عن هذا العالم كيف يمكن أن نعيش فيه؟

وليست آلهة الصدف هي التي أوصلت الوجودية إلى القول بالقلق الكئيب وباليأس. لقد قذف بالإنسان في هذا التراب برغمه فهو مضطر للوجود. ووجوده هذا هو الذي يصنعه بنفسه. ولما لم يكن هنالك من مبدأ أو قاعدة يمكن أن يسترشد بها في سلوكه فهو مرغم كل لحظة على

الاختيار بين المسالك المتشابكة التي تعرض له وما أكثرها! فإذا شعر بالقلق بالكئيب فما ذلك إلا نتيجة لتلك المسؤولية الساحقة التي يحملها أمام ما يشكل عذابه وعظمته معاً: أمام وجوده! أليس يلخص الوجوديون في هذه الأفكار البسيطة كل مأساة العصر؟.

أما (فرويد) فتسلل إلى كل آفاق الفكر تسلل الظفر الدامي! فوضع تجاه الإنسان العاقل المتسامي، الإنسان الحيوان، الإنسان ـ الحشرة! ويعتبر الناس الغريزة الجنسية أدنى الغرائز فيأتي فرويد ليجعلها ملهمة البشر وسيدة كل تصرفات الإنسان. فسواء نسيت رسالة على منضدة أو أبدعت مثل (واغنر) بارسيفال فعقدة أوديب الجنسية هي التي تسيرك! ولست أعرض لما في مذهب فرويد من الحق والخطل ولكني إنما أريد أن ترى معي ما فيه من سحق الإنسان لذاته ومن كرهه حتى لنفسه ومن إحساسه الفاجع البشع بالعبودية والحيوانية!

ويطول بنا الأمر لو نحن تتبعنا هذه التشاؤمية المسمومة ـ اللذيذة معاً في الفكر الفلسفي الحديث، فدعونا ننظر في رحاب العلم هل ثمة ظل منها؟ إن رصانة العلم التي توحي بالثقة لم تمنع من ظهور نوع غريب من الخوف لدى العلماء

المعاصرين. وإذا نحن اتهمنا الفنون بالهوس، والفلسفة بلبس النظارات السود فماذا نقول بقلق العلماء؟

هذا اينشتاين، صوفي العلم المعاصر، يصرح أنه "في المعركة المقبلة سيذهب ثلثا الجنس البشري" وهذا اوبنهايمر يصيح يوم تفجير القنبلة الذرية، صيحته الخنيق: "لقد عرف العلماء طريق الخطيئة"!! وهذا هارولد يوري، أحد محققي هذه القنبلة يعبر في عبارات غريبة السواد عن خوفه مما أقدم على اكتشافه من قوى، عن رعبه من هذا المارد الذي أطلقه من القمقم ثم يقول: "أنا نفسي خائف وكل العلماء الذين أعرفهم خائفون". وينتهي بأن ينعت هذه الكرة الهائمة "بدار المخافة"... وأخيراً هذا جان روستاند أحد كبار العقليين والعلماء الإنسانيين يكتب: "يكفي عدة علماء ليهبوا الإنسانية قوة خارقة ولكن لا يكفيها بضعة عقلاء ليجعلوها جديرة باستخدام تلك القوة. لقد جعل منا العلم آلهة قبل أن نستحق أن نكون بشراً. سنتعلم تحرير الفعالية الذرية. وسنجول بين الكواكب وسنطيل من حياتنا ونبرئ مسلولنا ولكنا قد لا نجد وسيلة لأن نحكم من قبل أكثر الناس جدارة بحكمنا!!".

ولقد عاد العلماء ينظرون اليوم من جديد في ذلك المبدأ الذي أعلنه كلود برنارد بقوة فلم يجرؤ أحد على مهاجمته، ثم أكده هنري بوانكاريه كحقيقة نهائية في صفحة شهيرة ختم بها كتابه (قيمة العلم): أعني مبدأ: العلم للعلم! وليسوا بالقلائل الآن أولئك الذين أخذوا ينكرون هذا المبدأ. وبينهم فيزيائيون عالميون أمثال لانغمير الأميركي واوليفانت الإنكليزي عادوا يفتشون في العلم عن الشعور الإنساني والضمير. ويرددون كلمة بيكون ورابليه "علم بلا ضمير ليس سوى تحطيم للروح"!

***

لعلي، بعد هذه الجولة من أفق إلى أفق استطعت أن أوحي بهذه الهزة التي تعذب الضمير الإنساني اليوم، وتملأه جراحات ولهيب عذاب ويظهر أننا كلما ازددنا قلقاً بدل أن نزداد تفاؤلاً تقدماً في الزمن، إن لم يكن في الحضارة، ازددنا ثقة. فما السر في هذه المأساة؟.

يخيل إلي أن ليس في الأمر من سر وإنما هي أحداث تركض من حولنا وأسباب تهزج تحت أنوفنا. وليست تلك الأحداث ببسيطة ولا بعارضة؛ فكما اختلفت وجوه المأساة

في الظهور فهي كذلك مختلفة في المنابع السود. وإذا كان لها أصابع الأخطبوط التي تهتصر كل نواحي الفكر فلها بالمقابل منابت كجذور الكروم بعيدة ومستحكمة!

على أنني أحسب أن في الوسع تلخيصها، رغم تعقدها وارتباكها في ثلاث فكر:

أولاً: فشل الفكر الحديث، في مختلف مجالاته. فلقد فشل العلم وهو الركن الأول في الحضارة الحديثة. إنه لم يستطع أن يحال مشاكل الإنسان إن لم يكن زادها. ولقد منحنا العلم في القرن الماضي تفاؤلاً حسب الناس معه أن النجوم في قبضة أكفهم وسيلعب بها الأطفال في المستقبل، ولكن سرعان ما هدم العلم نفسه بنفسه منذ حاول أن يفهم ويفسر بدل أن يربط ويقنن!

فلا العقل الذي يعتمد عليه بالآلة التي لا تخطئ ولا المنطق الأرسطاطاليسي الذي يعتمده، بالمنطق الوحيد، ولا الزمان والمكان اللذين يقيسهما بأمرين واقعين، ولا الحوادث التي يقتطعها من الحياة بخالية من الاصطناع. ثم إن الآراء الحديثة في بنية المادة قد أكدت بعد نظرياتنا عن الواقع. ذلك أن كل قياس دقيق للظواهر الأولية الذرية قد أصبح مستحيلاً استحالة نهائية.

بمعنى أن مبدأ التقيد العلمي يجب أن يستبدل به مبدأ عدم التقيد! ولا يبدو أصلد القوانين العلمية اليوم أكثر من مجرد احتمال!

ولقد فشل الفكر أيضاً في الفلسفة، تلك المفاهيم المبسطة التي نظم على أساسها المعرفة منذ كانت وهيغل أضحت اليوم مقولات جامدة ثقيلة، هرأها العث. فلا العقل موزع بقسط ثابت بين الناس ولا هو وجد منذ وجد، بشكله القائم دون تطور. عدا أن جزءاً كبيراً من مقولاته قد نقض وقفز الناس وراءها...

وليست الغلطة في النتائج التي وصل إليها فحسب، ولكنها في الطريقة أيضاً إنها غلطة غاليله الذي فرق بين الكمي والكيفي ودعا، مع انتصار نظاراته إلى هجر الكيفي المعقد الذي لا يقاس والاكتفاء بالكمي..

وتلاه بيكون فجاء بتجريبته الهزيلة وباستقرائه المبسط، ثم وضع ديكارت الخط النهائي في ذلك الاتجاه بتلك الثنوية التي فصل فيها بين الفكر والجسد، بين ما هو روح وما هو مادة!! وتم النصر أخيراً لما وجد العلم الآلة: معجزة الرفاه المادي عند الناس!

لكن تناسي المشكلة لا يكفي لتلاشيها وتعقدها ليس عذراً لحذفها. وهذه الغلطة في الطريقة التي قادت العلم أول الأمر إلى المجد دفعت هي نفسها الإنسان إلى التلاشي والضياع ثم عادت فقتلت العلم الذي أوجدته.. وهل بإمكان أحد أن يؤمن أن الإنسان هو فقط هذا الهيكل العضوي المتحرك؟ إذا لم أكن أنا غير هذه الأمصال الدموية والأعصاب الفيزيولوجية وذلك التوازن الكيمياوي ـ الفيزيائي في الخلايا والبروتوبلازما، فأين إذن قلقي وفرحي؟ وأين حبي وإرادتي؟ وأين اندفاعي في المصير؟ وإذا كانت أشعة المغيب هي فقط موجات كهرطيسية، فمن أين هبط إذن ذلك الجمال الذي يراه الفنان في ألوان المغيب؟ وإن كانت ألحان الوتر موجات تنداح كالدوائر على صفحة الماء، فلم تهتز أنت وأَهتز أنا لألحان الوتر؟

لقد تلفت الإنسان اليوم فإذا بكل الذي بناه حطام وعليه أن يعاود البناء من جديد! كذلك المسكين سيسيفوس في الأسطورة اليونانية قضت عليه الآلهة أن يحمل الصخرة إلى أعلى الجبل لكنها قضت في الوقت نفسه بأن تزلق من يديه كلما شارف بها القمة.

ثانياً ـ فشل القيم. أجل فقد فشلت القيم بدورها في هذا العصر. فشلت القيم الدينية الخالصة. وما أدري إذا كانت كلمة برونشفيك تكفي في تبيان هذه النقطة حين يقول في كتابه (تقدم الوعي): "إن أقوى حجة توجه ضد كل دين إيجابي هي أن المؤمنين به يستحيل عليهم أن يقدموا مضموناً ذهنياً محدداً لحالات انفعالية محترمة". والواقع أن القيم الدينية تأخذ بوضوح الشكل الذاتي الخاص وتنكمش إلى زوايا المعابد. ولا يستطيع حتى أبعد أنصارها حماسة أن ينتقل بها من ميدان القناعة الإيمانية إلى مجال الحقيقة النهائية! وفشلت القيم الخلقية أيضاً، فقد أضحينا نعرف أن مبادئ الأخلاق ليست مستلهمة من مثل عليا لا تتزحزح ولكنها وقائع نفسية أو تاريخية أو اجتماعية متطورة متقلبة، ثم إن قيمها نسبية. حتى لترف رفيف جناح الطائر لكل ريح!

وقد وافق هذا النفي لكل نظرية عقلية في السلوك اتجاه نحو رومانتيكية جديدة تتبع دوستويفسكي وكير كغادر ولا تشق طريقها نحو السلام إلا فيما وراء الأمانة والعدل والواجب وإلا خلال اليأس والقلق!

وفشلت القيم في نصب مثل عليا للناس؛ فأفكار الإنسانية الواحدة والتقدم المستمر والمدنية.. إلخ، كانت

تتناسب مع الوضع العقلي البارد الذي اندفع فيه الناس في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه. أما اليوم فإن الشك يقرض ضميرنا قرضاً حين نسأل أنفسنا: فيم ولمن نعمل؟. وأستطيع هنا أن أذكر على سبيل المقارنة تلك "الحضارات السعيدة" كما يدعوها جاك ماريتان لليونان القديمة ولفرنسا البيضاء وللشرق العربي الإسلامي، وأقول إنها كانت أكثر نجاحاً في فهم الإنسان ومنحه الطمأنينة. وقد كانت مؤسسات العائلة والدين والملكية الفردية أكثر قرباً إلى قلب الإنسان من النظم الحاضرة!

وأسارع إلى القول إني لا أبكي بالطبع على تلك المؤسسات المنهارة ولا أتفجع، فأنا أعلم أن الضرورة التي أوجدتها هي نفسها التي نقضتها، فما كان أي عمل إنساني في يوم من الأيام سوى مرحلة انتقال إلى عمل آخر يليه أو يسمو عليه، ثم إني لست أدعو للرجعة ـ وأنا أعلم أنها عقيم ـ إذا قلت إن الحضارات الأولى والدينية منها خاصة كانت أكثر إسعاداً للإنسان من الحضارة القائمة. ولكني أهفو إلى حضارة أخرى مقبلة تجعل همها توفير سعادة أعمق من تلك السعادة الأولى وأعنف. وأتطلع إلى حل لمشكلة الإنسان ليس من الضروري أن يكون حلاً دينياً لأن مثل هذا الحل لم

يعد كافياً وليس من الضروري أن يكون حلاً نهائياً لأن الحقيقة حية وجدلية ولكن يجب فقط ألَا يضحي فيه بشيء مما كسبه الإنسان حتى اليوم!

ثالثاً ـ نسيت الحضارة الحديثة الإنسان وأساءت فهمه! صحيح أن الحضارة الحديثة ابتدأت سيرها بإيقاظ الفردية في الإنسان! كان مجتمع القرون الوسطى يريد الناس على أن يكونوا نسخاً واحدة خانعة، قطيعاً تتساوى فيه كل الرؤوس، وكانت الهمسة الأولى في الحضارة الحديثة بعث الإنسان ـ الفرد، وصحيح أيضاً أن هذا الإنسان تمرد على كل شيء إذ ذاك، حتى على الدين ولقد جرؤ مسيو كلود أن يقول لبوسويه مرة وقد سأله:

ـ إلى أي مدى تصل تلك الحرية التي يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة. أليس لها حدود؟ أكل فرد إذن، كل امرأة، كل جاهل مهما كان، يستطيع أن يعتقد، ويجب أن يعتقد، أنه يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه ولو اجتمع من جهات العالم الأربع؟!

أقول: جرؤ مسيو كلود أن يجيبه منذ القرن السابع عشر:

ـ أَجل إنه لكذلك!

وصحيح أيضاً أن كل العلوم حامت حول الإنسان وأن الحياة السياسية قد سارت في الإطار نفسه فانتقلت أوروبا من الإقطاعية إلى البورجوازية، إلى الحكم الشعبي الواسع. من حلقة ضيقة من الحكام إلى أوسع منها فإلى أوسع، وكل المشاريع اليوم تهدف إلى تأمين أكبر قدر من العدالة الاجتماعية ومن الرفاه البشري. صحيح كل ذلك ولكنها حضارة الجماهير، هذه الحضارة، لا حضارة الفرد. لقد تحولت بسرعة من الاهتمام بالكيفية إلى الاهتمام بالكمية، وضحت بالحرية لحساب المساواة ونظرت إلى جميع البشرية ككتلة متشابهة عالجتها بسذاجة مبسطة غريبة وبكلمة واحدة: أهملت الإنسان ـ الفرد وعادت لفكرة القطيع. أليس هذا ما تفهمه اليوم المذاهب الجموعية، كالماركسية والديمقراطية مثلاً من الإنسانية؟

ثم إن هذه الحضارة أساءت فهم الإنسان. لقد ظنت أن "وضعية" كونت، قدر نهائي، وأن الحيوانية التي رمى بها دارون الإنسان ستبقى وصمة أبدية في جبينه كوصمة العبيد أيام الرومان. فهمته على أنه جسد فحسب، ولست أنكر أنها في هذا السبيل قد استطاعت أن تقدم له الكثير من

الرفاه العضوي ومن راحة الخلايا والنسج والعظام، ولكن أين راحة القلب والروح؟ "إن أحلامنا ومشاعرنا ليست أقل حقيقة من معدنا. والفرح والألم لهما نفس شأن الشمس والقمر إلينا. وعالم دانتي وبرغسون أوسع بكثير من عالم كلودبرنارد وبابيت! إن عالم المادة الجامدة رغم اتساقه وسهولته وجماله (أو لذلك كله) أَضيق من أن يتسع للإنسان ويدخله في مفاهيمه. إن الإنسان كائن حي في الوقت الذي هو فيه شيء مادي وهو منبع فعاليات بقدر ما هو خاضع لميكانيك العضلة. إن الإنسان الذي بدأ يفهم نفسه هو الذي يتألم اليوم.

وبعد! فإن عصر (غوته) الذي طلب وهو على فراش الموت أكثر فأكثر من النور قد انتهى، وفاوست الذي كان يريد أن يعرف كل شيء أي ثمن، أصبح في ذمة التاريخ.. مات ومات معه مفيستو! أما إنسان اليوم فهو (هملت) الذي استوت عنده جميع القيم والحدود فما يدري أين الطريق؟ وههنا مأساته الكبرى! أتكون هذه المأساة يا ترى إرهاصاً لفاوست جديد؟ لما فوق فاوست Super - Faust؟

أزمة وعدة حلول

حين نشر (اشبنغلر) كتابه "تدهور الغرب" منذ أكثر من ثلاثين سنة قوبل بالذي يقابل به نعيق البوم في دار عرس... كان العالم مندفعاً مع الآمال الحلوة يبينها أفقاً بعد أفق على الآلة وعلى العلم التجريبي وعلى التقدم التكني.. ولم يتردد الكثيرون إذ ذاك من تسمية العصر المقبل (ويقصد به عصرنا نحن الآن) بالعصر الذهبي للإنسانية!

فكان الكتاب لذلك أشبه بورقة نعي مبكرة لا معنى لها... على أن عدة سنوات من الحروب العالمية.. وبضعة علماء وأدباء وباحثين كانت كافية لتعطى ذلك الكتاب معناه ولتنقل سطوره الجهمة إلى كل قلب: فقد الناس إيمانهم بالقيم الأخلاقية والاجتماعية واضطرب النظام الاقتصادي وتزعزعت أُسس العلم والمبادئ المديرة للمعرفة... وظهر جيل سمى نفسه جيل ما بعد الحرب ليدل على ما في نفسه من

يأس، وما يقرض ضميره من قلق! ثم كانت الحرب الأخيرة فسفرت الأزمة. وأضحى العالم يشعر شعوراً عميقاً بالمأساة. ألسنا نرى ما يقبل عليه من الأدب الأسود وما يجتره من مذاهب تشاؤمية وما يتوق إليه من فردية أوشك، وما هدمه من قيم العلم والأخلاق وما يبعثه إلى الساحة من عشرات المصلحين والمرقعين... لقد أضحى الكثيرون يؤمنون اليوم أن ثمة أخطاء أسلوبية في جذور الحياة الحديثة وإنهم ليعددون منها عدداً كبيراً! يقولون:

أولاً: إن الحضارة الحديثة نشأت بين جدران المدن. وهذه الجدران تركت آثاراً عميقة في أذهان الناس فأضحى مذهب "فرق وادرس" أو ما يسمونه "بالمذهب التجريبي" أساساً من أُسس حياتنا العقلية. أليس هذا ما اختطه ديكارت كطريقة للمعرفة حين قال: إذا واجهتك صعوبة كبرى فجزئها إلى صعوبات صغيرة وتغلب على كل واحدة بمفردها فمجموع انتصاراتك الصغرى هو، على الأسلوب الرياضي، نصر أكبر على الصعوبة الكبرى. أليس هذا ما أقامه باكون، كمنهج للعلم، حين طلب، في دراسة كل مشكلة، تصنيف الأدلة المؤيدة والأدلة المخالفة في قوائم ثم مناقشتها واحدة إثر أخرى؟

إن ما فات العبقريين الكبيرين هو مقدار ما تفقده المشكلة من عناصر الوحدة عند تجزئتها ومقدار ما تخسره عند فصلها عن الحياة وعن الطبيعة نفسها، ومقدار ما يلعبه العامل الشخصي، في هذا الذي نصطنعه من تجزئة وفصل وحكم!

ثانياً: اعتبرت الطبيعة هي المادة؛ وهي الأشياء الجامدة والحيوانات. أما الإنسان فكائن منفصل كأنما هناك في سلم الكائنات هوة مفاجئة لا تعبر، حيث تبدأ الطبيعة البشرية. أليس ذلك كما يقول (طاغور) كتفريق البرعم والزهرة وردهما إلى نوعين منفصلين؟ بل إنا لنرى الحضارة الغربية أحياناً تفخر بأنها أخضعت الطبيعة وسيطرت عليها كأنما نعيش في عالم غريب عنا، علينا أن نعتصر كل شيء تريده من قبضة نظام الأشياء المضني. لقد غذت هذه الحضارة "فردية" الإنسان وأنمت "الأنا" فيه حتى أصبح كل منا إنساناً فحسب لا إنساناً في كون. إنها بهذا خلقت الإنسان والطبيعة ثنائية زائفة ومشاكل محيرة مع أن الحقيقة الكاملة لا تدرك من خارج الوجود ولكن تدرك فيه...

ومهما حاول الإنسان فإنه لن يستطيع خلق "عسله من شعاب خليته" ولا أن يتلمس من وجوده وحده النداء والدواء.. لأنه يقود نفسه بذلك إلى الجنون!

ثالثاً: اتجهت الحضارة الحديثة للمعرفة، ولم تتجه للحياة. بل كانت حدود المعرفة عندها، إلى هذا، ضيقة لا تهدف لأكثر من اكتشاف العلائق الرياضية بين الأشياء دون أن تمدَّ نظرها من وراء ذلك إلى ماهيات تلك الأشياء والصلات الحية بينها. ولهذا فإن اينشتاين وقوانينه النسبية يمكن أن تعتبر نقطة الأوج والنهاية في هذه الحضارة لأن هذا الدماغ الجبار استطاع أن يضع الكون كله في قانون رياضي واحد! ولكن مجتمعنا الحديث في الواقع يتألم من هذه الغلطة العقلية بالذات. إنها في الأصل فكرة عبقرية لغاليله ولكنا ذهبنا في تطبيقها السيء إلى الغاية: لقد فرق بين ما يقبل القياس من خواص الأشياء، وبنى عليه العلم، و بين ما لا يقبل القياس فأهمله... مع أن الكيفي الذي لا يقاس في الإنسان أَهم من الكمي المقاس. ثم جاء ديكارت فعمق الفصل بين الكمي والكيفي بثنائية الروح والجسد. لقد فصل بذلك المادي نهائياً عن الروحي. وأَضحى البناء العضوي والميكانيكية الفيزيولوجية حقائق أَعظم بكثير من اللذة والألم والجمال!.. ولكن أليست كل نواحي الوجود متساوية في حقيقتها؟ أليس أحلام الرياضيين سواء في الصحة مع أحلام العشاق؟ لا شك أن الكون الرياضي

المادي الذي خلقته عبقرية الفيزيائيين والفلكيين واحتبس فيه الفكر الإنساني منذ عصر النهضة الأوروبية عظيم وجميل، ولكن عالم المادة الجامدة أضيق من أن يتسع للإنسان وأقل من أن يكون هو وحده وجه الوجود وكل الحياة.

رابعاً: إن ثمة تفاوتاً ما ينفك يتسع ويتزايد بين طرقنا في التفكير والحياة، وبين ما وصلته الحياة الحديثة من تطور وبكلمة أخرى إن العلم قد خلق الإنسان الحالي بيئة مادية واجتماعية وفكرية متزايدة التعقيد والاختلاف، ولكن تجاوبه معها ما يزال ضعيفاً. وكثير من آلام الإنسانية إنما كان نتيجة اضطرارها، برغمها لمواجهة مشكلة التكيف والتلاؤم. وإنا إن ذهبنا مع النظرة المتشائمة التي نظرها مرة (ويلز) في هذا السبيل وصلنا إلى التنبؤ معه بنهاية النوع البشري"! لقد انقرضت خلال مراحل التطور المتطاولة جماعات كثيرة من المخلوقات الجبارة والزواحف المهولة واللبونات الضخمة بسبب عجزها عن التكيف وفقاً لضرورات البيئة المتبدلة. والحضارة اليوم قد انتهت بسبب ثورة المواصلات والتقدم الفني والإنتاج الضخم والاختصاص الضيق إلى أوضاع كلها جديد. ولكنها لم تهتم بإعداد

الإنسان الحديث لمواجهتها وتقبلها وهو في وحداته السياسية العتيقة ومجتمعه المحدود وإنتاج مزرعته!

وبعد فهذه النقاط الأربع قد تكون أكبر الخطوط في أزمة الحضارة الحديثة!

ولعله ما من رائد من رواد الفكر الحديث امتدت عينه إلى مستقبل الإنسان ولم يعرض لنقطة أو أكثر منها أو لم يحاول أن يذللها ويقترح الحلول لها. وقلائل أولئك الذين ارتضوا الموقف السلبي والنظرة المتشائمة: فبضعة نفر فقط أعلنوا مع اشبنغلر إفلاس الحضارة الغربية وانتهاء رسالتها ونظروا في الآفاق: أين ترى تبزغ الحضارة المقبلة؟ وعدد محدود آمنوا مع نيتشه وبرناردشو أن لا مجال للعمل إلا ضمن الخطوط التي رسمتها الحياة المتطورة لنفسها. فهذه "القوة العمياء" هي التي تسمو بالجنس البشري إلى ما فوق البشر. وكل قدرنا أن نكون جسوراً "للإنسان الكامل".

وخير ما نفعل أن نعين قوة الحياة على خلقه. أما جمهرة المفكرين فكانوا أكثر تفاؤلاً بكثير إذ آمنوا بإمكانية التقدم البشري وآمنوا بجانب ذلك بضرورة الانقلاب الصميمي في كيان هذه الحضارة ورسموا لذلك الانقلاب خطوطه وحدوده: من هؤلاء (آلدوس هاكسلي) الذي وجد

طريق الخلاص في "العودة إلى الله". ويقول في قصة "أعمى في غزة" إن التمكن من فن محبة الناس هو الخطوة الأولى في سبيل حل مشكلة العالم. فلنجعل المحبة والرأفة ماردين لا يتطرق إليهما التعب فهما يذللان المصاعب جميعاً ويتغلبان على الكسل الداخلي وعلى الكره وعلى الاحتقار العقلي "ويؤكد هاكسلي جازماً في قصته الأخيرة "على الزمان أن يتوقف عن المسير" ألا سبيل لنجاة الإنسان من مشكلاته ومتاعبه سوى السبيل التي يتنكبها الناس عادة إلا قليلاً منهم:

العودة إلى الله... ولكن الأمل عنده في مثل هذا التبدل الميتافيزيكي يبدو اليوم ضعيفاً وضعيفاً جداً!

ويقف بجانب آلدوس في هذه النتيجة مفكر آخر (جود) الذي يقول في كتابيه "فلسفة لعصرنا" و"الله والشر": إن عودة الإنسان للإيمان بالقيم الأزلية، قيم الحق والخير والجمال والسعادة ضرورة حيوية لعصرنا المضطرب ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعونة الله. ويقترب شاعر الهند الأعظم "طاغور" من هذين المفكرين إذ يعلن أن حل مشكلة الإنسانية هو في إدراك وحدة الوجود وفي العمل ضمن إطارها فما حياة الإنسان والكون سوى حقيقة واحدة كبيرة والتناسق عظيم

بين الأرض والنور والنسمة والطفل والماء والآلة الضخمة! وسعادة الإنسان ليست في قوة اتحاده بها عن طريق الحب!.

وراء هؤلاء المفكرين الآلهيين يبدو رعيل آخر يستمد عناصر حلوله من الأرض لا من القدرة الميتافيزيقية فوقه!

هناك مثلاً المفكر الإنكليزي (ويلز) الذي وقف كل إنتاجه وفكره على دراسة مشكلة الإنسان الحديث. إنه يرى المشكلة في وجهها العلمي ذات ثلاثة جوانب: جانب سياسي يدمر الإنسانية عن طريق الحرب وذلك بسبب التفاوت بين وحدة العالم الناتجة عن سرعة المواصلات وتوحد الحضارة والتقدم التقني، وبين انعزالية كل دولة وتمسكها بحدودها السياسية العتيقة ثم وجانب اقتصادي يهلك الإنسانية بالفقر بنتيجة سوء توزيع المنافع الاقتصادية بين مختلف شعوب العالم وأخيراً جانب تربوي يهلك البشر بجهلهم الروابط الإنسانية فيما بينهم. وعلى هذا يجب في رأيه أن يقوم بين الدول الكبرى ضرب من الاتحاد الفدرالي تضحي به كل دولة بشيء من سيادتها ف سبيل بقاء الجنس واستمراره. ويجب أن تحدث رقابة اقتصادية اتحادية للإفادة من ثروات العالم أفضل إفادة ويجب في النهاية أن يهتم العالم بتربية الجيل المقبل على مجموعة معينة من المعارف يعي بها

أن جميع البشر أضحوا مواطنين في الأرض. كل الأرض الهائمة في الفضاء الرحب!

هذا التلاؤم مع تطورات الحياة الحديثة ضروري في رأيه "لإنقاذ الحضارة من الغرق" وللوصول إلى عالم أسمى.

وثمة مفكر آخر هو جوليان هاكسلي خرج من دراساته البيولوجية بآمال عراض فرأى أن يقوم الحل لمشكلة الحضارة على أساس بيولوجي علمي، وسمى ذلك "الإنسانية العلمية": "رأى أن التطور البيولوجي مشى إلى اليوم وفق عملية الانتخاب الطبيعي العمياء وقد حان الوقت لإخضاع هذا التطور للتوجيه الإنسائي الواعي. والخطوة الأولى في هذا السبيل أن يلقي الإنسان عنه بتلك القيم الموروثة عن الماضي ويصبح هو نفسه خالق قيم جديدة يستلهمها من قدره المقبل ويصبح هدف الإنسان فيها الحياة الخصبة لا سدّ الرمق والسعي في سبيل القيم الروحية لا في سبيل اللقمة!.

إن في إمكان الحياة الإنسانية أن تقوم بثورة خيرة من انتشار التفكير العلمي واستغلال المكتشفات المخبرية لاسيما في الحقل البيولوجي وعلم تحسين النسل شريطة أن يفرض الإنسان توازناً دقيقاً واحتراماً عميقاً بين التقدم

العلمي والقيم الروحية وشريطة أن يعمل على نزع ذلك العداء السخيف بين العلم والدين! هذه هي الإنسانية العلمية!

ونصل أخيراً إلى القسيس كاريل: إنه عالم قضى شطراً كبيراً من حياته في المخابر وبين الدساتير الرياضية ولكنه عاشر المجانين والفلاسفة على السواء وخالط القديسين والمجرمين وتحدث مع صغار الفلاحين وكبار المتمولين كما وضعته الصدف بين الشعراء والمهندسين والجهال. وقد خلص من كل دراسته لمشكلة الإنسان بثلاث صفحات يرى فيها أن على الإنسانية أن تعاني تجربة حية مبدعة كتلك التي عانتها في أوائل عصر النهضة لتبدع طرائق فكرية جديدة يقول: "يجب أن نقوِّم اتجاهنا. وعلينا أن ننقل أنفسنا بالفكر إلى ما بين رجال عصر النهضة ونتأثر بفكرهم وبتوقهم إلى الملاحظة التجريبية وباحتقارهم للطرق الفلسفية ولكن يجب أن ننفصل انفصالاً صميمياً عنهم فنلقى عنا تمييزهم بين الخصائص الأولية والثانوية للأشياء ونرمي جانباً بثنائية ديكارت ولنغرس العقل من جديد في المادة ولكن دون أن ينفصل الروح عن الجسد، ولتصبح المظاهر العقلية في متناولنا كالمظاهر الفيزيولوجية. نعم إن دراسة الكيفي أصعب من الكمي وعقلنا يهوى

التناسق المجرد والنهائي في القانون الرياضي ولكن هل علينا أن نحب العلم لرشاقة طرقه فحسب ولوضوحه وجماله؟

قد يكون من الصعب أن نتخلى عن عقيدة سيطرت مدى ثلاثة قرون على فكر المتمدين ومن العسير على كثير من العلماء أن يهجروها لغيرها لأن معنى ذلك أن نهدم حتى الأسس، علوم التربية والطب والصحة وعلم النفس والاجتماع ونبدأ الدرب من جديد. ولكن هذا هو الواقع وعلينا أن نحترس من أن يؤدي انهدام الطريقة المادية إلى ردة فعل روحية. إن أولية علم النفس ليست بأقل خطراً من أولية الفيزيولوجيا. وفرويد أكثر ضرراً من معظم الفيزيائيين!

وبعد فلن أصطنع نظرة العرافين لاتنبأ لبعض هذه الحلول بالسيطرة على المستقبل أو أدعو لغيرها مما لم يخلق أصحابه بعد... وأحب أن أكون أقرب للتشاؤم أحياناً فأزعم لك أن أشد الحلول كمالاً ينتهي كماله في اللحظة التي ينزل فيها إلى عالم الناس والعمل وأن الإنسانية كان لها مشاكلها منذ وجدت وستظل لها مشاكلها ما وجدت حتى ليخيل إلي أحياناً أن الإنسان هو الذي يخلق مشاكله بيديه ليشقى بعد ذلك بحلها. أرأيت إلى الطفل كيف يلقي بدميته

إلى الأرض لا لسبب سوى أنها في يده ثم يبكي لها أن انكسرت أو ضاعت وراء المنضدة؟ إن أشد ما يروعني هو فقط تلك الجهود الإنسانية الخصبة التي تضيع في الهدم حتى كأن هذه الحياة نوع من العبث.. ومن يدري؟ فلعلها عبث لا بد منه.

تقدم الإنسان

التقدم، هذه الفكرة التي يخيل لي ولك أنها من الأفكار العتيقة في الناس والتي تركض على الألسن ويتلقنها كل يوم أطفالنا الصغار هي فكرة حديثة وحديثة جداً في التاريخ، هي بنت الأمس القريب وإنما عرفتها أقلام الكتاب منذ أربعة قرون فحسب، مع تفتح العلم الحديث الذي مشى، عن كثب، وراء الاكتشافات الجغرافية الكبرى. وقد أخذت فكرة التقدم شكلها الكامل حين ابتكر القرن الثامن عشر، ذلك العصر المتفائل، كلمة: (الإنسانية) فجعل الناس يتحدثون عن موكب الإنسانية السائر وعن التقدم الإنساني المطرد وعن الآفاق المرقشة، كأجنحة الفراش، التي تنتظر هذا الكائن العاقل: الإنسان! صحيح أننا لا نعرف من أي وهدة جرر الإنسان خطواته الأولى ولسنا نعرف مصيره الأخير الملفف بضباب

الخيـال والمجهـول ولكـن النـاس آمنـوا بفكـرة (التقـدم الإنساني) أحبوها وأراد وها أن تكون. أو ليست حلاً موفقاً يمنح كل هذه التغيرات التي نشهدها فينا ومن حولنا معنى عقلياً مقبولاً؟ أو ليست تزرع طريقنا بالزهر البراق وبالأمل؟

ولقد تلقف الفلاسفة من هيغل إلى كونت إلى نيتشه وسبنسر، فكرة الإنسانية المتقدمة وبنوا مقولاتهم عليها لبنة لبنة، لا سيما حين وجدت الفكرة صيغتها العلمية في كتاب دارون (أصل الأنواع) وفي النظرية التي بين حروفه الجافة: نظرية التطور: إذن.. فقد أضحى لهذا الخيط من النمل البشري الذي يزحف على طين هذه الأرض معنى في وجوده ومسيره فأوله متصل بإنسان الغاب أو بما دونه وآخره منته ـ دون شك ـ بالسوبرمان أو ما فوق الإنسان! ونحن، وأنا وأنت وهؤلاء الذي حولي وحولك، إنما نحن مراحل انتقال، جسور أَو يجب أن نكون ـ على ما يريد نيتشه ـ جسوراً للإنسان الأعلى المقبل، إن الجنة لم تعد حلماً نهفو للرجعة إليه في السماء ولكن أملاً مقدوراً ستلقاه هناك.. على المفرق القادم، وفي الأيام المقبلة على هذه الأرض. وجمهورية أفلاطون السعيدة أو مدينة الفارابي الفاضلة أو (طوبي) توماس مور... إلخ نحن جميعاً نساهم في نسيجها الأبدي.

والعلم الحديث، في ما فتح من آفاق جديدة للمعرفة الإنسانية ومن إمكانيات بكر للسيطرة على الطبيعة أعان على الوصول بفكرة التقدم الإنساني إلى مرحلة العقائد النهائية فما أطل هذا القرن العشرون حتى انقلب جميع المفكرين منجمين وعرافين يزوقون المستقبل وسعادته المرتقبة!

على أن أصواتاً جديدة، ليست بالخافتة ولا الراجفة صرخت لا! ليس ثمة تقدم ولعله ليس ثمة إنسانية أيضاً! من هؤلاء اشبنغلر الألماني وكيزرلنغ الدانمركي وآلدوس هكسلي وبيوري من الإنكليز وبعضهم اعتبرها مجرد "خرافة من خرافات المصير الإنساني" وبعضهم رأى فيها اسماً جديداً للقدر الإلهي... يقال بين الذي في الهزء منها:

1 ـ إن تقدم الإنسان يفترض وجود خطة مرسومة سابقة واتجاه معين للمسير وقوة محركة دافعة وهدف مأمول للوصول، ونحن من هذا الذي يدعونه بالتقدم الإنساني، في مثل التيه الذي ضل فيه البطل الاثيني (ثيسيوس) ولكن... دون الخيط الذي هداه سواء المخرج. فما خطة التقدم؟ وأنى يتجه؟ وما الذي يسيره؟ وإلى أين بعد المصير؟ لعل هذه الفكرة لا تزيد عن تلك الحيلة التي اصطنعها ذات مرة

صاحب الحصان الأعجف: خشي قعود حصانه عن المسير به لجوعه فربط بعض العشب في نهاية عصا ودلاه على مسافة قريبة أمام رأسه. وكم ركض الحصان ليصل إلى الطعام ولكن... كان ركضه نفسه ينأى بالطعام عنه.

2 ـ ما الذي يدرينا أنّا نحن بني البشر، نسير فعلاً على السبيل السوي، وعلى الطريقة الصاعدة، طريق التقدم الراقي وإنّا لسنا كالذين قال لهم صاحب المعرة أبو العلاء:

علام تجادلتم فقد طال هذا
تعليكم في الأمور ما هو إلا تدل؟!

لقد جرب الإنسان، منذ وجد، طرقاً متعددة للحياة في هذا الكون فكيف يؤكد لنفسه وبنفسه اليوم أنه وصل إلى الحياة المثلى؟ إذا لم يكن المقياس هو الرفاه المادي فلا شك أنه من الصعب الحكم بأن خطوات الإنسان ذات اتجاه أي كان! لاستيفان تزفايغ قصة يصف فيها بطلاً من الهند سماه (فيراتا) عاش حياة البطولة الحربية حتى لقّب في قومه "بومضة السيف" ثم هجرها إلى القضاء فبلغ من عدله أن عرف بلقب "منبع العدالة" وتبين له بعد هذا أنه غير عادل حقاً فاعتزل الناس في بيته الهادئ حتى أضحى في عرفهم

"ساحة الرأي الصالح" ولكنه تنبه أيضاً إلى أنه غير ناج من الخطأ ففر إلى الغابة يبني بها كوخاً بيده ويعتزل الحياة حتى ألفته الطيور والوحش وأعطاه الناس الاسم الرابع للفضيلة "نجم الاعتزال" ولكنه عرف ـ ويا للأسف ـ أنه حتى في غابه لم يفلح في السمو بنفسه درجة فاختار أخيراً أن يعود إلى قصر الملك ليكون قيماً على الكلاب!.. وهناك في ظلال النسيان فقط أنهى حياته! أيكون التقدم الإنساني يا تُرى كهذه الحلقة المفرغة؟ ويكون مصيراً لإنسان هذا المصير؟

3 ــ تقوم فكرة التقدم على تمثل التاريخ العام في شكل خط أفقي ممتد يمثل إنسانية واحدة تتقدم باستمرار... ولكن هذه الصورة ليست أكثر من اختراع ضليل ووهم جميل ساذج معاً. إنها مشجب يعلق به المصلحون والاجتماعيون مثلهم العليا. يقول غوته "الإنسانية؟ ولكن هذه كلمة مجردة! فلم يوجد مطلقاً في يوم من الأيام إلا الناس ولن يوجد مطلقاً إلا الناس!" ثم لا يمكن من جهة أخرى أن يكون التقدم ذا معنى إنساني عالمي. فكم من المدنيات ذبل بعد تفتح وكم من الاتجاهات مات دون رجعة بظهر غيره. وقد تكون الصدفة، الصدفة المحضة هي قانون هذا الكون وآيينه أكثر مما يكون التقدم!

4 ـ هل نحن في تقدم فعلاً؟ وهل هذه الحروب الجامحة التي تذيب ملايين البشر هي من التقدم أيضاً؟ وهذه النكسات التي تصيب الجنس البشر والأوبئة الأخلاقية أنستطيع أن ندعي أنها من صفات الكائن المتسامي على نفسه؟ بالأمس تزعزع إيماننا حتى بقيم العلم المطلقة فماذا بقي للبشر من أركان التفوق؟ هذا إلى أن ازدياد سيطرة الإنسان على الطبيعة ترافقه إمكانيات مطردة الخطر، للتقهقر والانحطاط.

5 ـــ لا يمكن أن يكون التقدم ذا صفة حتمية كالقدر؟ فلو ظهر جرثوم غير منتظر ـ كما قال جوليان هكسلي ـــ وتسلط على الجنس البشري لأباده. أو لو انخفضت الحرارة الأرضية عدة درجات لتوقف التطور أو لانتكس ورجع القهقري. ولو أن هذه الميكانيكية التي وهبها الإنسان لمواجهة الاحتمالات والمحاكمة والانتقاء والتي يدعونها العقل توقفت لسبب ما عن التطور لدار النوع الإنساني في دائرة الغريزة السرمدية!

6 ـ وأَخيراً فنحن إذا نظرنا إلى فكرة التقدم الإنساني في الميزان الأخلاقي وجدناها من القيم المفسدة السيئة إنها تدعو إلى التواكل ونبذ العمل لأنها تقوم على فكرة ترى

(على العكس من كل تجربة إنسانية) أن بالإمكان الوصول إلى شيء ما مجاناً دون أن نعطي من ذاتنا أي شيء! وما دام الركب الإنساني سائراً شاء أم أبى في الطريق التي رسمت له فليضرب المصطلحون (التقدميون منهم والرجعيون على السواء) برؤوسهم كل حائط فإنهم قد يعجلون أو يؤخرون مسير ذلك الركب ولكنهم لن يستطيعوا لمصيره تغييراً!

وحصالة هذا النقد كله أن حديث التقدم الإنساني ليس أكثر من حديث خرافة وإذا كان في الخرافة ما قد يفيد فهذه خرافة ضالة!. على أن أنصار التقدم ردوا على هذه الريبية المتشائمة وأنكروها.

لاحظ د.هكسلي أن للتقدم مفهومين اثنين: أحدهما طوباوي عامي (إن صحت التسمية) هو هدف النقاد في الواقع ويتخذ لدى الناس مظهرين: فمنهم من يرى أن العصر الذهبي للإنسان قريب المورد ليس علينا لنكون فيه سوى أن نهزم عقبة معينة من عقبات الحياة أو أن نقيم بناء اجتماعياً معيناً.. كأقطاب الثورة الفرنسية أو بعض المهووسين بالانقلاب الصناعي في القرن الماضي وأنصار بعض المبادئ في هذه الأيام، وفي الناس من يرى أن التقدم أمر لا مفر منه

وما دام الإنسان قد قذف في الحياة فلم يكن له إلا أن يتقدم وما دام عقله قد اتجه في الاتجاه العلمي الحديث فذلك التقدم لا بد أن يكون سريعاً وثابتاً ومنظماً...

وهذا المفهوم الطوباوي يختلف اختلافاً بيناً عن المفهوم الآخر العلمي الذي عمل على إقامته ودعمه إخصائيو التطور، فالعلماء اليوم يعلمون أن التقدم ليس مجرد فكرة نبعت من ميلنا إلى إلباس رغباتنا لباس الحقائق. ولكنه حادث واقع حقيقي: سواء في العالم غير العضوي أو في ميدان البيولوجيا أو في الحقل الإنساني.

وإذا كان عالم اللاعضوية، عالم الأفلاك والشموس، لا نهائياً في المكان، أزلياً في الزمان، وكانت ملاحظة التقدم فيه صعبة فإن ملاحظة التقدم البيولوجي على سطح كوكب واحد هو الأرض أمر ممكن وقريب. كما أن مراقبة التطور الراقي في نوع واحد من أنواع الكائنات الحية هو الإنسان، شيء في متناول كل باحث رغم تعقده وارتباكه!

إن ظهور الحياة نفسها هو نظام في الوجود أرقى وأدق من أي وجود آخر غير عضوي. وهذا الكائن الإنساني الموهوب ميكانيكية العقل لا نختلف في سموه على أي

كائن آخر خاضع للغريزة وحدها أو لا غريزة له... "وفاوست غوته والسمفونية الخامسة لبيتهوفن لها دون شك من القيمة أكثر من كل ما أنتج الإنسان في حالته البدائية، بله النشاط الحيواني! وما تحدر من المعرفة عن الاكتشافات الرياضية والعلمية في هذه القرون الثلاثة الأخيرة أكثر قيمة دون أي ريب من كل المعرفة التي كان يتمتع بها أرسطو! وآلاء هذه الحضارة القائمة نفعت البشر أكثر من أي حضارة سابقة فالعامل العادي يتمتع اليوم برفاه لم يعرفه هارون الرشيد أو أغسطس. والعالم منذ تفجرت فيه الحضارة الإنسانية أضحى أحسن وأعلى شأناً وأجدر أن يعاش مما كان في العصور البربرية.

وهكذا "فمن الواضح أنه أياً كان أصل الكون وأنى انتهى إليه مصيره المحتوم فإن فيه اتجاهاً يستحق كل الاستحقاق أن يدعى تقدماً ورقياً" ونقطة الخلاف تبقى في الحقل الأخلاقي، حقل القيم التي تصل الإنسان بالمطلق واللانهائي. حقل الحب والكشف العلمي والدين والفن والمثل العليا. فهل مس التقدم هذه الأقانيم الإنسانية الكبرى؟ إن بها وحدها تظهر ملامح الإنسان. ولكنا لا نستطيع أن نبرهن على الرقي فيها ولا نستطيع أن نرى السمو إلا فيما

هـو تـاريخ وثـورة وفكـر وطبيعـة وهـذه الأقـانيم وإن كـانـت تتعلـق تعلقـاً لا انفصـام لـه بعـالم الأحـداث التـاريخي، المـتغير أبداً، الثـائر أبـداً إلا أنهـا تبقـى فـوق متنـاول القـانون والمعـايير والتقويم!

وبعـد فلـئن لم يكـن تقـدم الإنسـان صـحيحاً فيجـب أن نريده ونسعى إليه ولـئن لم يكـن هـذا الكـائن الإنسـاني قـد تقــدم إلى اليــوم فــإن في إمكانــه دون شــك أن يتقــدم، أن ينتصر على حيوانيته، أن يبرهن أنه إنسان.

المحتوى

شاكر مصطفى في (حضارة الطين) / تقديم إسماعيل الملحم 5

في الحضارة 21
حضارة الطين.....23
حضارة القلق.....33
حضارة التمرد.....43
حضارة الجسد.....52
حضارة الغد 64

في الإنسان 75
الإنسان والعلم 77
إنسان هذا العصر 89
الإنسان لدى قادة الفكر 109
الإنسان وما فوق الإنسان.....120
مأساة الإنسان.....131
أزمة وعدة حلول.....156
تقدم الإنسان.....168

إصدارات سلسلة

كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص لبطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب - د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	يالبل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
33	حكايـــة الولـــد الفلســـطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي الفـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصـة السـورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
39	مختارات قصصية رقصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
40	شقيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيـــر ســـلطان قدوري	فاديا غبور	2010
41	الأعلام الشـعري فـي التـراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
43	بريجيـت مأسـاة تمثيليـة ذات خمسة فصول-يوسف نعمـة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي - عبد العزيز المقالح	د. ابراهيم الجرادي - عبد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من ادب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	ماياكوفسكي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي ماخوذا بالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو والمصلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صفور	مالك صفور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صفور	مالك صفور	2012
64	الأعاصير - الشـاعر القـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صفور	مالك صفور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صفور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
75	الفقـــه والتصـــوف والمســـائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـــد رائـــب الحلاق	مالك صفور	2013
76	ّصالح العلي ناثراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
79	الأديـــب والمفكـــر أبـــو حيـــان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلـى العالم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان فضملي	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان فضملي	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غابـــة الحـــق (أفـــق التنـــوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د. نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د. نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د. نـــزار بريـــك هنيدي	د. نضال الصالح	2016